(سورة أل عمران)

{ الم} { ٱللَّهُ لاإِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ }

{ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيلَ}

{ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ }

{ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ فِي ٱلسَّمَآءِ }

{ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ }

{ الم الله لا إلـه إلا هـو الحيّ القيوم } مرّ تأويله

{ نـزل عليـك الكتـاب بالحـق } أي: رقّـاك رتبـة فرتبـة، ودرجـة فدرجـة، بتنزيـل الكتاب عليك منجماً إلى العلم التوحيدي الـذي هـو الحـق باعتبـار الجمـع المسـمّى بالعقـل القـرآني{ مصدّقـاً لمـا بـين يديـه } مـن التوحيـد الأزليّ السـابق المعلـوم في العهد الأول المخزون في غيب الاستعداد

{ وأنـزل التـوراة والإنجيـل من قبل } هكذا ثمّ { أنزل الفرقان }

أي: التوحيـد التفصيـليّ الـذي هـو الحـق باعتبـار الفـرق المسـمّى بالعقـل الفرقـانيّ، وهـو منشـأ الاسـتقامة ومبـدأ الدعـوة { إنّ الذيـن كفـروا }

أي: احتجبـوا عـن هذيـن التوحيديـن بالمظاهـر والأكـوان التـي هـي آيـات التوحيـد في الحقيقـة { لهـم عـذاب شـديد } في البعـد والحرمـان { واللـه عزيـز }

أي: قاهـر { ذو انتقـام } لا يقـدر وصفه ولا يبلغ كنهـه ولا يقدر على مثله، منتقم { لا يخفـى عليـه شيء } في العالمين، فيعلـم مواقع الانتقام { منه آيات محكمات }.

{ هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ ٱللَّهُ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ ٱلأَلْبَابِ }

{ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا
وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ }
{ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ }
{ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ
وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْئاً وَأُولَـٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ }
{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا
فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ }
{ قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ }

سمت من أن يتطرق إليها الاحتمال والاشتباه لا يحتمل إلا معنى واحداً { هنّ أمّ } أي: أصل { الكتاب وأُخَر مُتَشابهات } تحتمل معنيين فصاعداً ويشتبه فيها الحق والباطل، وذلك أنّ الحق تعالى له وجه هو الوجه المطلق الباقي بعد فناء الخلق لا يحتمل التكثر والتعدّد، وله وجوه متكثرة إضافية متعدّدة بحسب مرائي المظاهر. وهي ما يظهر بحسب استعداد كل مظهر فيه من ذلك الوجه الواحد، يلتبس فيها الحق بالباطل، فورد التنزيل كذلك لتنصرف المتشابهات إلى وجوه الاستعدادات فيتعلق كل بما يناسبه، ويظهر الابتلاء والامتحان. فأمّا العارفون المحققون الذين يعرفون الوجه الباقي في أية صورة وأي شكل كان، فيعرفون الوجه الحق من الوجوه التي تحتملها المتشابهات فيردونها إلى المحكمات متمثلين بمثل قول الشاعر:

وما الوجه إلا واحد غير أنه إذا أنت أعددت المزايا تعدّدا

وأمّا المحجوبون { الذين في قُلُوبهم زَيغ } عن الحق { فيتبعون ما تَشَابه } لاحتجابهم بالكثرة عن الوحدة. كما أن المحققين يتبعون المحكم، ويتبعونه المتشابه، فيختارون من الوجوه المحتملة ما يناسب دينهم ومذهبهم
{ ابْتِغاء الفِتْنة } أي: طلب الضلال والإضلال الذي هم بسبيله
{ وابْتِغَاء تَأْويله } بما يناسب حالهم وطريقتهم.

فهم كما لا يعرفون الوجه الباقي في الوجوه، لزم أن لا يعرفوا المعنى الحق من المعاني، فيزداد حجابهم ويغلظ ليستحقوا به العذاب

{ وما يَعلم تأويله إلا الله والراسِخونَ في العلمِ } العالمون، يعلمون بعلمه، أي: إنما يعلمه الله جميعاً وتفصيلاً { يقولون آمنا به } يصدّقون علم الله به، فهم يعلمون بالنور الإيماني { كلّ من عِند ربنا } لأن الكلّ عندهم معنى واحد غير مختلف { وما يَذكر } بذلك العلم الواحد المفصل في التفاصيل المتشابهة المتكثرة إلا الذين صفت عقولهم بنور الهداية وجرّدت عن قشر الهوى والعادة. { ربنا لا تُزغْ قلوبنا } عن التوجه إلى جنابك، والسعي في طلب لقائك، والوقوف ببابك، بالافتتان بحبّ الدنيا وغلبة الهوى، والميل إلى النفس وصفاتها، والوقوف مع حظوظها ولذاتها { بعد إذْ هَدَيتنا } بنورك إلى صراطك المستقيم، والدين القويم، وبسبحات وجهك إلى جمالك الكريم { وهَبْ لنا من لدُنك رحمةً } رحيمية تمحو صفاتنا بصفاتك وظلماتنا بأنوارك { إنك أنت الوهاب }

{ ربنا إنك جَامع الناس لِيَوم لا رَيْبَ فيه }

أي: يجمعهم ليوم الجمع الذي هو الوصول إلى مقام الوحدة الجامعة للخلائق أجمعين الأولين والآخرين، فلا يبقى لهم شك في مشهدهم ذلك { لن تُغْني عنهم أمْوَالهم ولا أوْلادهم من الله شَيئاً } بل هي سب حجابهم وبُعدهم من الله وتعذيبهم بعذابه لشدّة تعلقهم بهم ومحبتهم إياهم.

{ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي ٱلأَبْصَارِ }{ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ ذٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ ٱلْمَآبِ }

{ قد كان لكم آية } يا معشر السالكين دالة على كمالكم وبلوغكم إلى التوحيد

{ في فئتين التقتا فئة } القوى الروحانية الذين هم أهل الله وجنوده

{ تقاتل في سبيل الله وأخرى } هي جنود النفس وأعوان الشياطين محجوبة عن الحقّ. ترى الفئة الأولى، مع قلّة عددهم، مثليهم عند التقائهما في معركة البدن لتأييد الفئة الأولى بنور الله وتوفيقه وخذلان الفئة الثانية وذلهم وعجزهم وضعفهم وانقطاعهم عن عالم الأيد والقدرة. فغلبت الأولى الثانية وقهروهم بتأييد الله ونصره، وصرفوا أموالهم التي هي مدركاتهم ومعلوماتهم في سبيل معرفة الله وتوحيده { والله يؤيد بنصره من يشاء } من أهل عنايته المستعدّين للقائه { إنّ في ذلك لَعِبرة } أي: اعتباراً أو أمراً يُعْتبر به في الوصول إلى الحقيقة للمستبصرين الذين انفتحت أعين بصائرهم واكتحلت بنور الإيقان العلميّ من أهل الطريقة يعتبرون به أحوالهم في النهاية.{ زُين للناس حبّ الشهوات } لأن الإنسان مركب من العالم العلويّ والسفليّ، ومن نشأته وولادته تحجبت فطرته وخمدت نار غريزته وانطفأ نور بصيرته بالغشاوات الطبيعية والغواشي البدنية، والماء الأجاج من الذّات الحسيّة، والرياح العواصف من الشهوات الحيوانية، فبقي مهجوراً من الحق في أوطان الغربة وديار الظلمة يسار به، مبلوّاً بأنواع النصب والتعب، فإذا هو بشعشعة نور من التميز ولمعان برق من عالم العقل، وداعٍ ينادينه من الهوى والشيطان، فتبعه فصادف منزلاً نزهاً، وروضة أنيقة، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، فاستوطنه وشكر سعيه ورضيه مسكناً وقال:

عند الصباح يَحْمد القوم السري　　　والداعي قد هيئ له القرى

فذلك حبّ الشهوات، أي: المشتهيات المذكورة وتزيينها له وهو تمتيع له بحسب ما فيه من العالم السفليّ، وكمال لحياته حجب به من تمتيع الحياة الأخرى وكمالها، بحسب ما فيه من العالم العلوي، ولم يتنبه على أنها أبهى وألذّ وأصفى مع ذلك وأبقى، وهو معنى قوله: { والله عنده حُسْن المآب }

{ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ }

فإن أدركه التوفيق الإلهيّ والتنبيه السريّ، وقارنه الإنباء النبوي كما قال: { قل أؤنبئكم بخَير من ذلكم } انبعث من باطنه شوق وعشق لحركة العلويّ

إلى مركزه، واشتعلت ناره التي قد خمدت، وتتتابع عليه لوامع الأنوار الإلهية وطوالع الإشراقات القدسية، فاستنار نور بصيرته الذي قد انطفأ، ورقّت الحجب التي منعت فطرته عن طلب المقرّ والمأوى، وتنغص عيشه الذي هو فيه فتكدّر ما هو عليه، واستظلم ما كان قد استصفاه من الحياة الدنيا وسكنت في نفسه سورة الهوى بغلبة الجزء الروحانيّ على الجسماني، وذاق طعم ماء فرات الحياة الحقيقية فلم يصبر على الملح الأجاج وباشر قلبه خطرات اليقين بجريعات شربها من الماء المعين، فعلم أنه كان أكمن في سرب من الأرض، فاستلمع ضوء الكواكب ليلاً وظنه نهاراً، فخرج فإذا هو ببريّة فيها ماء زعاق وأنواع من الحشائش كالخمخم والجرجير ونحوها، فظنها رياحين وثماراً، فجلس بما وجد عن ضياء الشمس وألوان الطيب والفواكه، فعزم على رحيل الأوبة وغشيته وحشة الغربة، فانتقى ما استطاب واستحلى. ثم سار وخلى حتى إذا أضاء نور صبح عين اليقين، وحان وقت طلوع شمس الوحدة، رأى جنة تحيّر فيها بصره ودهش في وصفها عقله، وكان ما كان مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فإذا أفاق وقد طلعت الشمس، وجد فيها ألافاً وأحباباً وعرف أنه كان له مثوى ومآباً، ورجع إليه الأنس، ونزل محلة القدس، بدار القرار في جوار الملك الغفّار، وأشرقت عليه سبحات وجهه الكريم، وحلّ بقلبه روح الرضا العميم، وذلك معنى قوله: { للذين اتقوا عند ربهم جنّات تجري من تحتها الأنهار }

إلى قوله: { والله بصير بالعباد } ، فالجنّات جنّات الأفعال، والأزواج أصناف روحانيات عالم القدس، والرضوان جنّات الصفات.

{ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ آمَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ }

{ ٱلصَّابِرِينَ وَٱلصَّادِقِينَ وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْمُنْفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلأَسْحَارِ }

{ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَٱلْمَلاَئِكَةُ
وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَاً بِٱلْقِسْطِ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ }

{ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلإِسْلاَمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ}

{ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ
وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ }
{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }
{ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ}
{ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ }
{ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } { فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }

{ الذين يقولون ربنا إننا آمنا } بأنوار أفعالك وصفاتك { فاغفر لنا ذنوبنا } أي: ذنوب وجوداتنا بذاتك { وقِنَا عَذَاب النّار } أي: نار الهجران ووجود البقية { الصابرين } على غصص المجاهدة والرياضة { والصادقين } في المحبة والإرادة { والقانتين } في السلوك إليه وفيه { والمُنفِقين } ما عداه من أموالهم وأفعالهم وصفاتهم ونفوسهم وذواتهم { والمستغفرين } عن ذنوب تلويناتهم وبقياتهم في أسحار أيام التجليات النورية عند طلوع طوالع الأنوار، وظهور تباشير صبح يوم القيامة الكبرى بالأفق الأعلى، فأجابهم وقت طلوع شمس الذات من مغرب وجودهم، فلم يبق مغرباً بقوله { شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو } طلع الوجه الباقي، فشهد بذاته في مقام الجمع على وحدانيته، إذ لم يبق شاهد ولا مشهود غيره. ثم رجع إلى مقام التفصيل فشهد بنفسه مع غيره على وحدانيته في ذلك المشهد فقال: { والملائكة وأولو العلم قائماً بالقِسْط } أي: مقيماً للعدل في تفاصيل مظاهره، وصور كثرتها الذي هو ظلّ الوحدة في غير الجمع بإعطاء كلّ ذي حقّ بحسب استعداده واستحقاقه حقّه من جوده وكماله وتجليه فيه على قدر سعة

وعائه { لا إله إلا هو } في المشهدين { العزيز } القاهر الذي يقهر كل شيء باعتبار الجمع فلا يصل إليه أحد { الحكيم } الذي يدبر بحكمته كل شيء، فيعطيه ما يليق به باعتبار التفصيل ,{ إنّ الدين عند الله } هو هذا التوحيد الذي قرّره بنفسه. فإنّ دينه دين إسلام الوجوه كما قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم: « أسلمت وجهي لله « أي: نفسي وجملتي، وانخلعت عن أنانيتي، ففنيت فيه. وأمر الله تعالى حبيبه عليه الصلاة والسلام فيما بعد بقوله:

{ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتّبعن }.

{ إنّ الذين يَكْفرون بآياتِ الله } أي: المحجوبين عن الدين

{ ويقتلون النبيين بغير حقّ } لكونهم محجوبين بدينهم لا يقبلون إلا ما هم عليه من التقيد والتقليد، والأنبياء دعوهم إلى التوحيد ومنعوهم عن التقيد فقتلوهم

{ ويَقْتلون الذين يَأْمرون بالقِسْط من الناس } من أتباعهم، إذ العدل ظلّ التوحيد، فمن لم يكمل له لا يمكنه العدل، وهم قد حجبوا بتقييدهم بدينهم، فقد حجبوا بظلمهم عن العدل فخالفوهم وقتلوهم.

{ أولئك الذينَ حَبطت أعمَالهم } التي عملوها على دين نبيهم، لأنهم كانوا بتقليد نبيهم ناجين بالمتابعة، وأنبياؤهم كانوا شفعاءهم بتوسطهم بينهم وبين الله في وصول الفيض إليهم، فإذا أنكروا النبيين وأتباعهم العادلين فقد خالفوا نبيّهم لأن الأنبياء كلهم على ملّة واحدة في الحقيقة هي ملّة التوحيد، لا نفرّق بين أحد منهم في كونهم على الحقّ فمن خالف واحداً فقد خالف الكلّ، وكذا من خالف أهل العدل من أتباع النبيين فقد ظلم، ومن ظلم

فقد خرج بظلمه عن المتابعة وأيضاً فمنكر الاتباع منكر المتبوعين، ومنكر الظلّ منكر الذات خارج عن نورها. وإذا خالفوا نبيّهم لم يبق بينهم وبينه من الوصلة والمناسبة ما تمكن به الاستفاضة من نوره، فحجبوا عن نوره وكانت أعمالهم منوّرة بنوره لأجل المتابعة، لا نور ذاتيّ لها، إذ لم تكن صادرة عن يقين،

فإذا زال نورها العارضي باحتجابهم عن نبيهم فقد أظلمت وصارت كسائر السيئات من صفات النفس الأمّارة، وفيه ما سمعت غير مرّة من قتل كفار قوي النفس الأمّارة أنبياء القلوب والآمرين بالقسط من القوى الروحانية.

@peikanahl.com

{ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

{ قل اللهمّ مَالِك المُلْك } تملك مُلك عالم الأجسام مطلقاً، تتصرّف فيه لا مالك ولا متصرّف ولا مؤثر فيه غيرك { تؤتي المُلْك مَن تشاء } تجعله متصرّفاً في بعضه { وتَنزع المُلْك مِمَنْ تشاء } بجعل التصرّف في يد غيره ولا غير ثمّة بل تقلّبه من يد إلى يد، فأنت المتصرّف فيه على كل حال بحسب اختلاف المظاهر

{ وتعز من تَشاء } بإلقاء نور من أنوار عزتّك عليه فإنّ العزّة لله جميعاً

{ وتذِلّ من تَشاء } بسلب لباس عزتّك عنه فيبقى ذليلاً { بيدِكَ الخير } كله، وأنت القادر مطلقاً، تعطي على حسب مشيئتك، تتجلى تارة على بعض المظاهر بصفة العز والكبرياء، فتكسوه لباس العز والبهاء، وتارة بصفة القهر والإذلال فتكسوه لباس الهوان والصغار، وتارة بصفة المعز فتكون مذلاً، وتارة بصفة المذلّ فتكون معزاً، وتارة بصفة الغني فتعطي المال، وتارة بصفة المغني فتفقره، أي: تجعله مستغنياً عن المال، فقيراً لا يحتاج إلى شيء.

{ تُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلْنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلَمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }

{ لاَّ يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَىٰ ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ }

{ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

{ تُولِج الليل في النهار وتُولج النهار في الليل } تدخل ظلمة النفس في نور القلب فيظلم، وتدخل نور القلب في ظلمة النفس فتستنير بخلطهما معاً مع بعد المناسبة بينهما { وتُخرج الحيّ } أي: حيّ القلب { من الميت } أي: من ميت النفس، وميت النفس من حيّ القلب، بل تخرج حيّ العلم والمعرفة من ميت الجهل، وتخرج ميت الجهل من حيّ العلم تحجبه عن

النور، كحال بلعم بن باعورا { وترْزق من تَشاء } من النعمة الظاهرة والباطنة جميعاً، أو من إحداهما { بِغَيرِ حِسَاب } { لا يتخذ المؤمنون الكافرين أوْلِياء من دون المُؤْمنين } إذ لا مناسبة بينهم في الحقيقة، والولاية لا تكون إلاّ بالجنسية والمناسبة، فحينئذ لا يمكن أن تكون المحبة بينهم ذاتيّة، بل مجعولة مصنوعة بالتصنع والرياء والنفاق وهي خصال مبعدة عن الحق إذ كلها حجب ظلمانية ولو لم يكن فيهم ظلمة تناسب حال الكفرة ما قدروا على مخالطتهم ومصاحبتهم { ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء } أي: من ولاية الله في شيء، معتدّ به، إذ ليس فيهم نورية صافية يناسبون بها الحضرة الإلهية

{ إلا أن تتقوا منهم تقاة } أي: إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب أن يتقى، فتوالوهم ظاهراً ليس في قلوبكم شيء من محبّتهم، وذلك أيضاً لا يكون إلا لضعف اليقين. إذ لو باشر قلوبهم اليقين لما خافوا إلا الله تعالى وشاهدوا معنى قوله تعالى:

{ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ

وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِه }[يونس، الآية: ١٠٧] فما خافوا غيره ولم يرجوا غيره، ولذلك عقبه بقوله: { ويحذركم الله نَفسه }

أي: يدعوكم إلى التوحيد العياني كي لا يكون حذركم من غيره بل من نفسه { وإلى الله المصير } فلا تحذروا إلا إيّاه فإنه المطلع على أسراركم وعلانياتكم، القادر على مجازاتكم إن توالوا أعداءه أو تخافوهم سرّاً أو جهراً.

{ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً

وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدَاً بَعِيداً

وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَٱللَّهُ رَؤُوفٌ بِٱلْعِبَادِ }

{ يوم تَجد كل نَفس } الآية، كل ما يعمله الإنسان أو يقوله يحصل منه أثر في نفسه وتنتقش نفسه به وإذا تكرر صار النقش ملكة راسخة، وكذا ينتقش في صحائف النفوس السماوية، لكنه مشغول عن هيئات نفسه ونقوشها بالشواغل الحسيّة والإدراكات الوهمية والخيالية، لا يفرغ إليها، فإذا فارقت نفسه جسدها ولم يبق ما يشغلها عن هيئاتها ونقوشها وجدت ما عملت من

خير أو شرّ محضراً، فإذا كان شرّاً تتمنى بعد ما بينها وبين ذلك اليوم أو ذلك العمل لتعذيبها به، فتصير تلك الهيئات والنقوش صورتها إن كانت راسخة وإلا وجدت جزاءها بحسبها وتكرّر { ويحذركم الله نفسه } تأكيداً لئلا يعملوا ما يستحقون به عقابه { والله رؤوف بالعباد } فلذا يحذرهم عن السيئات تحذير الوالد المشفق لولده عمّا يوبقه.

{ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

{ قُل إن كنتم تحبون الله فاتّبعوني يحببكم الله } لما كان عليه الصلاة و السلام حبيبه فكل من يدّعي المحبة لزمه اتباعه لأن محبوب المحبوب محبوب، فتجب محبة النبيّ، ومحبته إنما تكون بمتابعته وسلوك سبيله قولاً وعملاً وخلقاً حالاً وسيرة وعقيدة، ولا تمشي دعوى المحبة إلا بهذا فإنه قطب المحبة ومظهره وطريقته طلسم المحبة، فمن لم يكن له من طريقته نصيب لم يكن له من المحبة نصيب، وإذا تابعه حق المتابعة ناسب باطنه وسرّه وقلبه ونفسه باطن النبيّ صلى الله عليه وسلم وسرّه وقلبه ونفسه وهو مظهر المحبة.

فلزم بهذه المناسبة أن يكون لهذا المتابع قسط من محبّة الله تعالى بقدر نصيبه من المتابعة، فيلقي الله تعالى محبته عليه ويسري من باطن روح النبي صلى الله عليه وسلم نور تلك المحبة إليه، فيكون محبوباً لله، محبّاً له، ولو لم يتابعه لخالف باطنه باطن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فبَعُدَ عن وصف المحبوبية وزالت المحبة عن قلبه أسرع ما يكون، إذ لو لم يحبّه الله تعالى لم يكن محبّاً له { ويغفر لكم ذنوبكم } كما غفر لحبيبه. قال تعالى:

{ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ }

[الفتح، الآية: ٢] وذنبه المتقدّم ذاته، والمتأخر صفاته، فكذا ذنوب المتابعين كما قال تعالى: « لا يزال العبد يتقرّب إليّ... « إلى آخر الحديث. { والله غفور } يمحو ذنوب صفاتكم وذواتكم { رحيمٌ } يهب لكم وجوداً وصفات حقانيّة خيراً منها. ثم نزل عن هذا المقام لأنه أعزّ من الكبريت الأحمر.ودعاهم إلى ما هو أعمّ من مقام المحبة، وهو مقام الإرادة.

{ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ }
{ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ }
{ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

فقال: { قل أطيعُوا الله والرسول } أي: إن لم تكونوا محبين ولم تستطيعوا متابعة حبيبي فلا أقل من أن تكونوا مريدين، مطيعين لما أمرتم به، فإن المريد يلزمه متابعة الأمر وامتثال المأمور به { فإن تولوا فإنّ الله لا يحبّ الكَافرين }

أي: إن أعرضوا عن ذلك أيضاً، فهم كفّار منكرون محجوبون، والله لا يحب من كان كافراً. فبترك الطاعة يلزم الكفر، وبترك المتابعة لا يلزم، لأنّ تارك المتابعة يمكن أن يكون مطيعاً بمتابعة الأمر. ومعنى { أطيعوا الله والرسول }: أطيعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى:

{ مَّنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ } [النساء: ٨٠].

{ إنّ الله اصطفى آدمَ ونُوحاً } الاصطفاء أعمّ من المحبة الخلة، فيشمل الأنبياء كلهم لأنهم خيرة الله وصفوته، وتتفاضل فيه مراتبهم، كما قال تعالى:

{ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْض

[البقرة، الآية: ٢٥٣]،فأخص المراتب هو المحبة، وأشار إليه بقوله تعالى:

{ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَات }

[البقرة، الآية: ٢٥٣] فلذلك كان أفضلهم حبيب الله محمداً صلى الله عليه وسلم ثم الخلّة التي هي صفة إبراهيم عليه السلام، وأعمها الاصطفاء، أي: صفة آدم عليه السلام { ذريّة بعضها من بَعض } في الدين والحقيقة، إذ الولاية قسمان: صورية ومعنوية، وكل نبيّ يتبع نبيّاً آخر في التوحيد والمعرفة، وما يتعلق بالباطن من أصول الدين فهو ولده كأولاد المشايخ في زماننا هذا. وكما قيل: الآباء ثلاثة: أب ولدك، وأب رباك، وأب علمك. فكما أن وجود البدن في الولادة الصورية يتولد في رحم أمّه من نطفة أبيه، فكذلك وجود القلب في الولادة الحقيقية يظهر في رحم استعداد النفس من نفحة الشيخ والمعلم.

وإلى هذه الولادة أشار عيسى عليه السلام بقوله:

« **لن يلج ملكوت السموات من لم يُولَد مرتين** ».

واعلم أنّ الولادة المعنوية أكثرها يتبع الصورية في التناسل، ولذلك كان الأنبياء في الظاهر أيضاً نسلاً، ثم ثمر شجرة واحدة، فإن عمران بن يصهر أبا موسى وهارون كان من أسباط لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وعمران بن ماثان أبا مريم أم عيسى عليه السلام كان من أسباط يهود بن يعقوب، وكون محمد عليه الصلاة والسلام من أسباط إسماعيل بن إبراهيم مشهور وكذا كون إبراهيم من نوح عليه السلام. وسببه أنّ الروح في الصفاء والكدورة يناسب المزاج في الاعتدال وعدمه وقت التكوّن، فلكلّ مزاج يناسبه ويخصّه، إذ الفيض يصل بحسب المناسبة وتفاوت الأرواح في الأزل بحسب صنوفها ومراتبها في القرب والبُعد، فتتفاوت الأمزجة بحسبها في الأبد لتتصل بها. والأبدان المتناسلة بعضها من بعض متشابهة في الأمزجة على الأكثر، اللهمّ إلا لأمور عارضة اتفاقية، فكذلك الأرواح المتصلة بها متقاربة في الرتبة، متناسبة في الصفة. وهذا مما يقوي أن المهديّ عليه السلام من نسل محمد صلى الله عليه وسلم.

{ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرا ً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ }

{ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنْثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ }

{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }

{ والله سَميعٌ } حين قالت امرأة عمران: { رب إني نَذَرت } إلى قولها:

{ عليمٌ } بنيتها كما شهدت بقولها { إنك أنتَ السَميع العليم }. واعلم أن النيّات وهيئات النفس مؤثرة في نفس الولد، كما أن الأغذية مؤثرة في بدنه. فمن كان غذاؤه حلالاً طيباً وهيئات نفسه نورية ونيّاته صادقة حقانيّة، جاء ولده مؤمناً صديقاً أو وليّاً أو نبيّاً. ومن كان غذاؤه حراماً وهيئات نفسه

ظلمانية خبيثة ونياته فاسدة رديئة جاء ولده فاسقاً أو كافراً خبيثاً. إذ النطفة التي يتكوّن الولد منها متولدة من ذلك الغذاء، مربّاة بتلك النفس، فتناسبها. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الولد سرّ أبيه « ، فكان صدق مريم وبنوة عيسى عليهما السلام بركة صدق أبيها { وجدَ عندها رِزقاً } يجوز أن يراد به الرزق الروحاني من المعارف والحقائق والعلوم والحِكَم الفائضة عليها من عند الله، إذ الاختصاص بالعندية يدلّ على كونها من الأرزاق اللدنيّة.

{ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ }

{ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلاۤئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَـىٰ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ }

{ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ }

{ قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلإِبْكَارِ }

{ هنالك دعا زكريا ربّه } كان زكريا شيخاً هرماً، وكان مقدّماً للناس، إماماً، طلب من ربّه ولداً حقيقياً يقوم مقامه في تربية الناس وهدايتهم كما أشار إليه في سورة (كهيعص) فوهب له يحيى من صلبه بالقدرة، بعدما أمر باعتكاف ثلاثة أيام ولك التأويل بالتطبيق على أحوالك وتفاصيل وجودك كما علمت، وهو أنّ الطبيعة الجسمانية، أي: القوة البدنية. امرأة عمران الروح نذرت ما في قوّتها من النفس المطمئنة لله تعالى بانقيادها لأمر الحق ومطاوعتها له، فوضعت أنثى النفس فكفلها الله، زكريا الفكر، بعدما تقبلها لكونها زكيّة، قدسيّة، فكلما دخل عليها زكريا الفكر محراب الدماغ وجد عندها رزقاً من المعاني الحدسيّة التي انكشفت عليها بصفائها من غير امتياز الفكر إيّاها.

فهنالك دعا زكريا الفكر، تركيب تلك المعاني واستوهب من الله ولداً طيباً مقدّساً عن لوث الطبيعية، فسمع الله دعاءه،

أي: أجاب، فنادته ملائكة القوى الروحانية وهو قائم بأمره في تركيب المعلومات، يناجي ربّه باستنزال الأنوار، ويتقرّب إليه بالتوجه إلى عالم القدس في محراب الدماغ.{ إنّ الله يبشرك بيحيى } العقل بالفعل { مصدّقاً } بعيسى القلب، مؤمناً به، وهو كلمة من الله لتقدّسه عن عالم الأجرام والتولّد عن الموادّ { وسيداً } لجميع أصناف القوى { وحصوراً } مانعاً نفسه عن مباشرة الطبيعة الجسمانية وملابسة طبائع القوى البدنية { ونبيّاً } بالإخبار عن المعارف والحقائق الكلية، وتعليم الأخلاق الجميلة، والتدابير السديدة بأمر الحق { من الصالحين }.

ومن جملة المفارقات والمجرّدات التي تصلح بأفعالها أن تكون من مقرّبي حضرة الله تعالى بعد أن بلغ الفكر كبر منتهى طوره ولم يكن منتهياً إلى إدراك الحقائق القدسية، والمعارف الكلية.

وكانت امرأته التي هي طبيعة الروح النفسانية لأنها محل تصرّف الفكر عاقراً بالنور المجرّد.وعلامة ذلك، أي: علامة حصول النور المجرّد وظهوره من النفس الزكيّة، إمساكه عن مكالمة القوى البدنية في تحصيل مطالبهم ومآربهم ومخالطتهم في فضول لذّاتهم وشهواتهم ثلاثة أيام، كلّ يوم عقد تامّ من أطوار عمره عشر سنين، إلا أن يرمز إليهم بإشارة خفيّة، ويأمرهم بتسبيحهم المخصوص بكل واحد منهم من غير أن يدنو منهم في مقاصدهم، وأن يشتغل في الأيام الثلاثة التي مداها ثلاثون سنة من ابتداء سنّ التمييز، الذي هو العشر الأول، بذكر ربّه في محراب الدماغ والتسبيح المخصوص به دائماً.

{ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَـٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَـٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ }

{ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ }

{ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ }

{ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلائِكَةُ يٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ }

{ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ }

وكذا قالت ملائكة القوى الروحانية لمريم النفس الزكية الطاهرة { إن الله اصْطفاكِ } لتنزّهك عن الشهوات { وطهرك } عن رذائل الأخلاق والصفات المذمومة { واصطفاكِ على نسَاء } نفوس الشهوانية الملونة بالأفعال الذميمة والملكات الرديئة { يا مَرْيم } أطيعي لربك بوظائف الطاعات والعبادات { واسْجدي } في مقام الانكسار والذلّ والافتقار والعجز والاستغفار { واركَعي } في مقام الخضوع والخشوع مع الخاضعين.

{ ذلكَ من أنبَاء الغَيب } أي: أحوال غيب وجودك { نُوحِيه إليكِ } يا نبيّ الروح { وما كنت لدَيهم } لدى القوى الروحانية والنفسانية، أي: في رتبتهم ومقامهم { إذْ يلقون أقلامهم أيهم يَكفل مريم } أي: يتسابقون في سهامهم ويتبادرون في حظوظهم أيهم يدبر مريم النفس ويكفلها بحسب رأيه ومقتضى طبعه يترأس عليها ويأمرها بما يراه من مصلحة أمره { وما كنت لدَيهم } في مقام الصدور الذي هو محل نزاع القوى الروحانية والنفسانية ومحل نزاعهم الذي هو الصدر { إذْ يَختَصِمون } يتنازعون ويتجاذبون في طلب الرياسة عند ظهوره قبل الرياضة وفي حالها، إذ غلبت ملائكة القوى الروحانية بتوفيق الحق بعد الرياضة. وقالت لمريم النفس: { إنّ الله يبشّرك بِكَلمة } القلب موهوباً { منه اسمُه المَسِيح } لأنه يمسحك بالنور { وجيهاً في الدنيا } لإدراكه الجزئيات وتدبير مصالح المعاش أجود وأصفى وأصوب ما يكون، فيطيعه ويذعن له، ويحتشمه ويعظمه، أنس القوى الظاهرة وجنّ القوى الباطنة { و } في { الآخِرَة } لإدراكه المعاني الكليّة والمعارف القدسيّة وقيامه بتدبير المعاد والهداية إلى الحق، فنعطيه ملكوت سماء الروح، ونكرمه. ومن جملة مقربي حضرة الحق قابلاً لتجلياته ومكاشفاته { ويكلم الناس } في مهد البدن { وكهلاً } بالغاً إلى قرب طور شيخ الروح، غالباً عليه بياض نوره { ومن الصالحين } لمقام المعرفة.

{ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }

{ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيلَ }

{ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِىءُ ٱلأَكْمَهَ وٱلأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }

{ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ }

{ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ }

{ قالت ربّ أنى يكون لي ولد } تعجب النفس من حملها وولادتها من غير أن يمسها بشر، أي من غير تربية شيخ وتعليم معلم بشري، وهو معنى بكارتها { قال كذلك الله يَخلق ما يَشاء } أي: يصطفي من شاء بالجذب والكشف ويهب له مقام القلب من غير تربية وتعليم كما هو حال المحبوبين وبعض المحبين { ويعلّمه } بالتعليم الربانيّ، كتاب العلوم المعقولة، وحكم الشرائع، ومعارف الكتب الإلهية من التوراة والإنجيل، أي معارف الظاهر والباطن

{ ورَسُولاً } إلى المستعدّين الروحانيين من أسباط يعقوب الروح { أني قد جِئْتكم بآية من ربّكم } تدلّ على أني آتيكم من عنده { أني أخلق لكم } بالتربية والتزكية والحكمة العملية من طين نفوس المستعدّين الناقصين

{ كهيئة الطير } الطائر إلى جناب القدس من شدّة الشوق { فأنفخ فيه } من نفث العلم الإلهيّ ونفس الحياة الحقيقية بتأثير الصحبة والتربية

{ فيكون طَيراً } أي: نفساً حيّة طائرة بجناح الشوق والهمة إلى جناب الحقّ

{ وأُبْرِئُ الأكمه } المحجوب عن نور الحق الذي لم تنفتح عين بصيرته قط ولم تبصر شمس وجه الحق ولا نوره ولم يعرف أهل بكحل نور الهداية

{ والأَبْرَص } المعيوب نفسه بمرض الرذائل والعقائد الفاسدة ومحبّة الدنيا

ولوث الشهوات بطب النفوس { وأُحْيي } موتى الجهل بحياة العلم
{ بإذنِ الله وأُنبئكم بما تأكلون } تتناولون من مباشرة الشهوات واللذّات
{ وما تدّخرون في بُيُوتكم } أي: في بيوت غيوبكم من الدواعي والنيّات
{ إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدّقاً لما بين يدي من التوراة } أي: من توراة علم الظاهر { ولأحل لكم بعض الذي حرمَ عليكم } من أنوار الباطن { وجئتكُم بآية } بدليل { من ربّكم } هو التوحيد الذي لم يخالفني فيه نبيّ قط { فاتّقوا الله } في مخالفتي، فإني على الحق { وأطيعونِ } في دعوتكم إلى التوحيد.

{ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }

{ رَبَّنَآ آمَنَّا بِمَآ أَنزَلَتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ }

{ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ }

{ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوۤاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }

{ فلما أَحسّ عيسى } القلب من القوى النفسانية { الكُفر } الاحتجاب والإنكار والمخالفة { قال مَنْ أنصاري إلى الله } أي: اقتضى من القوّة الروحانية نصرته عليهم في التوجه إلى الله { قال الحواريون } أي: صفوته وخالصته من الروحانيات المذكورة { نحنُ أنصار الله آمنا بالله } بالاستدلال وبالتنوّر بنور الروح { وأشهد بأنّا مُسْلِمون } مذعنون منقادون { ربنا آمنا بما أنْزَلت } من علم التوحيد وفيض النور { واتبعنا الرسول فاكتُبْنَا مع الشاهِدين } الحاضرين لك، المراقبين لأمرك، أو من الشاهدين على وحدانيتك.

{ ومَكَروا } أي: الأوهام والخيالات في اغتيال القلب وإهلاكه بأنواع التسويلات { ومكَر الله } بتغليب الحجج العقلية، والبراهين القاطعة عن تخيلاتها وتشكيكاتها ورفع عيسى القلب إلى سماء الروح، وألقى شبهه على النفس ليقع اغتيالهم { والله خير الماكرين } إذا غلب مكره. وقال لعيسى: { إني مُتَوفيك }

أي: قابضك إليّ من بينهم { ورَافعك إليّ } أي: إلى سماء الروح في جواري { ومطهرك من } رجز جوار { الذين كفروا } من القوى الخبيثة ومكرهم وخبث صحبتهم { وجاعل الذين اتبعُوك } من الروحانيين { فوق الذين كفروا } من النفسانيات إلى يوم القيامة الكبرى والوصول إلى مقام الوحدة { ثم } يومئذ { إليّ مرجعكم فأحكم بينكم } بالحق { فيما كنتم فيه تختلفون } قبل الوحدة من التجاذب والتنازع الواقع من القوى. فأقرّ كلاً في مقرّه هناك وأعطيه ما يليق به من عندي فيرتفع التخالف والتنازع.

{ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ }

{ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ }

{ ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ }

{ فأمّا الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً } بالحرمان عن مقام القلب، والاحتجاب بهيئات أعمالهم { وأما الذين آمنوا } من الروحانيات { وعملوا الصالحات } من أنواع التزكية والتحلية والتصفية في إعانة القلب على النفس ومتابعته في التوجه إلى الحق { فيوفيهم أجورهم } من الأنوار القدسية والإشراقات الروحية عليهم { والله لا يحب } الذين ينقصون الأجور من الحقوق.

وأما التأويل بغير التطبيق، فهو أنهم مكروا ببعث من يغتال عيسى عليه السلام، فشبّه لهم صورة جسدانية هي مظهر عيسى روح الله عليه السلام بصورة حقيقة عيسى، فظنوها عيسى فقتلوها وصلبوها، والله رفع عيسى عليه السلام إلى السماء الرابعة لكون روحه عليه السلام فائضاً من روحانية الشمس، ولم يعلموا لجهالتهم أنّ روح الله لا يمكن قتله. ولما تيقن حاله قبل الرفع قال لأصحابه: « إني ذاهب إلى أبي وأبيكم السماويّ « ،

أي: أتطهر من عالم الرجس، وأتصل بروح القدس الواهب الصور، المفيض للأرواح والكمالات، المربي للناس بالنفث في الروح، فأمدّكم من فيضه.

وكان إذ ذاك لا تقبل دعوته ولا يتبع مثله، فأمر الحواريين بالتفرّق بعده في البلاد

والدعوة إلى الحق، فقالوا: كيف ذاك إذا لم تكن معنا؟ والآن أنت بين أظهرنا ولا تجاب دعوتنا؟ قال: « علامة إمدادي إيّاكم قبول الخلق دعوتكم بعدي «. فلما رُفِعَ لم يدع أصحابه أحداً إلا أجابهم، وظهر لهم القبول في الخلق، وعلت كلمتهم، وانتشر دينهم في أقطار الأرض. ولما لم يصل إلى السماء السابعة التي عرّج بمحمد صلى الله عليه وسلم إليها، المعبر عنها بـ « سدرة المنتهى « أعني: مقام النهاية في الكمال، ولم ينل درجة المحبة، لم يكن له بد من النزول مرة أخرى في صورة جسمانية، يتبع الملّة المحمدية لنيل درجتها، والله أعلم بحقائق الأمور.

{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ }

{ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ }

{ إن مثل عيسى } أي: إنّ صفته عند الله في إنشائه بالقدرة من غير أب { كمثل آدم } في إنشائه من غير أبوين. واعلم أنّ عجائب القدرة لا تنقضي ولا قياس ثمة على أن لتكوّن الإنسان من غير الأبوين نظيراً من عالم الحكمة، فإن كثيراً من الحيوانات الناقصة الغريبة الخلقة تتولد خلقاً في ساعة، ثم تتناسل وتتوالد، فكذا الإنسان، يمكن حدوثه بالتولد في دور من الأدوار، ثم بالتولد، وكذا التكوّن من غير أب، فإنّ منيّ الرجل أحرّ كثيراً من منيّ المرأة، وفيه القوة العاقدة أقوى كما في الأنفحة بالنسبة إلى الجبن، والمنعقدة في منيّ المرأة أقوى، كما في اللبن فإذا اجتمعا تمّ العقد وانعقد، ويتكوّن الجنين. فيمكن وجود مزاج إناثيّ قوي يناسب المزاج الذكوري كما يشاهد في كثير من النسوان، فيكون المتولد في كليتها اليمنى بمثابة منيّ الذكر لفرط حرارته بمجاورة الكبد لِمَن مزاج كبدها صحيح قويّ الحرارة، والمتولد في كليتها اليسرى بمثابة منيّ الأنثى فإذا احتملت المرأة لاستيلاء صورة ذكورية على خيالها في النوم واليقظة بسبب اتصال روحها بروح القدس وبملك آخر، ومحاكاة الخيال، ذلك كما قال تعالى: { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّا } [مريم، الآية: ١٧] سبق المنيّان من الجانبين إلى الرحم فتكون في المنصب من الجانب الأيمن قوّة العقد أقوى، وفي المنصب من الجانب الأيسر قوّة الانعقاد، فيتكوّن الجنين ويتعلق به الروح.

وقوله: { كُنْ فَيَكون } إشارة إلى نفخ الروح وكونه من عالم الأمر ليس مسبوقاً

بمادة ومدة، كخلق الجسد، فيتناسب آدم وعيسى بما ذكر في اشتراكهما في خرق العادة وبكون جسديهما مخلوقين من تراب العناصر، مسبوقين بمادة ومدة وكون روحهما مبدعاً من عالم الأمر ليس مسبوقاً بمادة ومدة.

{ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ } { إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلاَّ ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ }{ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ }

{ فمن حاجكَ فِيه } أي: في عيسى، الآية. إن لمباهلة الأنبياء تأثيراً عظيماً سببه اتصال نفوسهم بروح القدس وتأييد الله إياهم به، وهو المؤثر بإذن الله في العالم العنصري فيكون انفعال العالم العنصري منه كانفعال بدننا من روحنا بالهيئات الواردة عليه كالغضب والحزن والفكر في أحوال المعشوق وغير ذلك من تحرّك الأعضاء عند حدوث الإرادات والعزائم وانفعال النفوس البشرية منه كانفعال حواسنا وسائر قوانا من هيئات أرواحنا. فإذا اتصل نفس قدسيّ به أو ببعض أرواح أجرام السماوية والنفوس الملكوتية كان تأثيرها في العالم عند التوجه الاتصالي تأثير ما يتصل به فتنفعل أجرام العناصر والنفوس الناقصة الإنسانية منه بما أراد. ألم تر كيف انفعلت نفوس النصارى من نفسه عليه السلام بالخوف وأحجمت عن المباهلة وطلبت الموادعة بقبول الجزية.

{ وما من إله إلاّ الله } أي: ليس عيسى من الإلهية في شيء، فلا يستحق العبادة بمجرد تجرّد ذاته، فإن عالم الملكوت والجبروت كله كذلك.

{ قُلْ يٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ ٱللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } { يٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِيإِبْرَاهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّورَاةُ وَٱلإنْجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }

{ هٰأَنْتُمْ هَـٰؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِـهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ
لَكُـمْ بِهِ عِلْـمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ }
{ مَـا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً
وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْـلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ }
{ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّـاسِ بِإِبْرَاهِيـمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ
وَٱللَّـهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِـينَ } { وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ
لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَـهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }
{ يٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْـهَدُونَ }
{ يٰأَهْـلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُـونَ ٱلْحَـقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُـونَ } * { وَقَالَـتْ طَّآئِفَةٌ مِّـنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ آمِنُواْ بِٱلَّذِي أُنْزِلَ عَلَى
ٱلَّذِيـنَ آمَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }
{ وَلاَ تُؤْمِنُـواْ إِلاَّ لِمَـن تَبِـعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ
أَن يُـؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَـآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ
قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَـآءُ وَٱللَّهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ }
{ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَـآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }
{ وَمِـنْ أَهْـلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْـهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن
تَأْمَنْـهُ بِدِينَـارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْـتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ
لَيْـسَ عَلَيْنَا فِي ٱلأُمِّيِّينَ سَـبِيلٌ وَيَقُولُـونَ عَلَى اللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }
{ بَـلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْـدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }
{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْـتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـٰئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ
فِي ٱلآخِـرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّـهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ
وَلاَ يُزَكِّيهِـمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

{ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِٱلْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }

{ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } { وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلاَئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ }

{ سواء بيننا وبينكم } أي: لم يختلف في كلمة التوحيد نبي ولا كتاب قط

{ وما كان لبشر أن يُؤْتِيه الله } الآية. الاستنباء لا يكون إلا بعد مرتبة الولاية والفناء في التوحيد. ما ينبغي لبشر محا الله بشريته بإفنائه عن نفسه وأثابه وجوداً نورانياً حقّانياً قابلاً للكتاب والحكمة الإلهية، ثم يدعو الخلق إلى نفسه، إذ الداعي إلى نفسه يكون محجوباً بالنفس كفرعون وأضرابه من الذين علموا التوحيد وما وجدوه حالاً وذوقاً، ولم يصلوا إلى العيان ونفوسهم باقية ما ذاقت طعم الفناء، فاحتجبوا بها، فدعوا الخلق إلى نفوسهم وهم ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: « شرّ الناس من قامت القيامة عليه وهو حيّ ».

{ ولكن } يقول { كونوا ربانيين } منسوبين إلى الربّ لاستيلاء الربوبية عليهم وطمس البشرية بسبب كونهم عالمين عاملين معلمين تالين لكتب الله، أي: كونوا عابدين مرتاضين بالعلم والعمل والمواظبة على الطاعات حتى تصيروا ربانيين بغلبة النور على الظلمة { ولا يأمركم } بتعبد معين والتقيد بصورة، فإنه حجاب وكفر ولا يأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالاحتجاب بعد إسلامكم الوجود لله.

{ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّيْنَ لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ ٱلشَّاهِدِينَ }

{ وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيين } إلى آخره، إن بين النبيين تعارفاً أزليّاً بسبب كونهم أهل الصف الأول، عرفاء الله، وكل عارف يعرف مقام سائر العرفاء ومتعهدهم

من الله بعهد التوحيد عامّ لبني آدم، كما ذكر، وعهد النبيين خاص بهم وبمن يعرفهم بحق المتابعة، فقد أخذ الله من النبيين عهدين أحدهما ما ذكر في قوله:

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَم }

[الأعراف، الآية: ١٧٢] إلى آخره. وثانيهما ما ذكر في قوله تعالى:

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّيْنَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقاً غَلِيظا }

[الأحزاب: ٧] وهو عهد التعارف بينهم، وإقامة الدين، وعدم التفرّق به بتصديق بعضهم بعضاً ودعوة الحق إلى التوحيد، وتخصيص العبادة بالله تعالى، وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم، وتعريف بعضهم بعضاً إلى أممهم وخصوصه بسبب أن معرفة الله تعالى في صورة التفاصيل، وحجب الصفات، وتكثر المظاهر أدق وأخفى من معرفته في عين الجمع وهم من رزق حق المتابعة عارفون بذلك وبأحكام تجليّات الصفات التي هي الشرائع خاصة دون من عداهم.

{ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ }

{ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ }

{ قُلْ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }

{ فمن تولى بعد ذلك } أي: بعدما علم عهد الله مع النبيين وتبليغ الأنبياء إليه ما عهد الله إليهم { فأولئك هم الفاسقون } الخارجون عن دين الله ولا دين غيره معتد به في الحقيقة إلا توهماً { أفغير دين الله يَبْغون } وكلّ من في السموات والأرض يدين بدينه { طَوْعاً } كما عدا الإنسان والشيطان { وكرهاً } كالإنسان والشيطان إذ الكفر لا يسع موجوداً سواهما، فكلهم ممتثلون لما أمرهم الله، طائعون. والإنسان لاحتجابه بإرادته ونسيانه عهد الله وقبوله لدعوة الشيطان لمناسبته إياه بالظلمة النفسانية لا يؤمن ولا ينقاد إلا كرهاً،

اللهمّ إلا من عصمه الله واجتباه، والشيطان لاحتجابه بعجبه وأنيته في قوله:

{ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْه }

[الأعراف، الآية: ١٢] وإبائه، واستكباره كفر، وهو مع ذلك يعلم عصيانه ويؤمن كرهاً، ويتحقق أن كفره بإرادته تعالى وذلك عين الإيمان، كما قال تعالى:

{ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِين }

[الحشر، الآية: ١٦]، وقال تعالى:

{ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّيۤ أَرَىٰ مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيۤ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَاب }

[الأنفال، الآية: ٤٨]، وفي موضع آخر:

{ وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوۤاْ أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْل }[إبراهيم، الآية: ٢٢]، فهذه الآيات دالة على إيمانه ولكن حين لا ينفعه { وإليه ترجعون } في العاقبة، فلا يبقى دين غير دين الله بل الكلّ عند الرجوع يدين بدينه.

كلّ يدين بدين الحق لو فطنوا وليس دين لغير الحق مشروع

{ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ }

{ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوۤاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ }

{ أُوْلَـٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلاۤئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ }

{ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ }

{ إِلاَّ ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
{ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ }

{ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً } المراد من الإسلام ههنا: التوحيد الذي هو دين الله في قوله: { أَسْلَمْتُ وَجْهِي لله } وهو المذكور في الآية التي قبلها، وما وصف شموله لجميع الأديان ويلزمه الانقياد التام الطوعي المذكور في فاصلة الآية بقوله:

{ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون }[البقرة: ١٣٣]،

{ فلن يُقبل منه } لعدم وصول دينه إلى الحق تعالى لمكان الحجاب

{ وهو في الآخرة من الخاسرين } الذين خسروا باشترائهم أنفسهم وما حجبوا به بالحق.{ كيفَ يَهْدي الله قَوماً } إلى آخره، أنكر هدايته تعالى لقوم قد هداهم أولاً بالنور الاستعدادي إلى الإيمان، ثم بالنور الإيماني إلى أن عاينوا حقيّة الرسول صلى الله عليه وسلم وأيقنوا بحيث لم يبق لهم شك، وانضمّ إليه الاستدلال العقليّ بالبينات ثم ظهرت نفوسهم بعد هذه الشواهد كلها بالعناد واللجاج وحجبت أنوار قلوبهم وعقولهم وأرواحهم الشاهدة ثلاثتها بالحق للحق لشؤم ظلمهم وقوّة استيلاء نفوسهم الأمّارة عليهم الذي هو غاية الظلم، فقال:

{ والله لا يهدي القوم الظالمين } لغلظ حجابهم وتعمقهم في البعد عن الحق، وقبول النور وهم قسمان: قسم رسخت هيئة استيلاء النفوس الأمّارة على قلوبهم فيهم وتمكنت وتناهوا في الغيّ والاستشراء، وتمادوا في البعد والعناد، حتى صار ذلك ملكة لا تزول، وقسم لم يرسخ ذلك فيهم بعد ولم يصر على قلوبهم ريناً، ويبقى من وراء حجاب النفس مسكة من نور استعدادهم عسى أن تتداركهم رحمة من الله وتوفيق، فيندموا ويستحيوا بحكم غريزة العقول. فأشار إلى القسم الأول بقوله:{ إن الذين كفروا بعد إيمانهم } إلى آخره. وإلى الثاني بقوله: { إلاّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصْلَحوا } بالمواظبة على الأعمال والرياضات ما أفسدوا.

{ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ }

{ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ }
{ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِـلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَاةِ فَٱتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
{ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ }
{ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ }

{ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً } إذ لا تقبل هناك إلا الأمور النورانية الباقية لأن الآخرة هي عالم النور والبقاء، فلا وقع ولا خطر للأمور الظلمانية فيها الفانية. وهل كان سبب كفرهم واحتجابهم إلا محبّة هذه الفواسق الفانية؟، فكيف تكون سبب نجاتهم وقربهم وقبولهم وندبتهم وهي بعينها سبب هلاكهم وبعدهم وخسرانهم وحرمانهم.

{ لن تَنالوا البرّ } كلّ فعل يقرّب صاحبه من الله فهو برّ، ولا يمكن التقرّب إليه إلا بالتبرّي عما سواه، فمن أحب شيئاً فقد حجب عن الله تعالى به وأشرك شركاً خفيّاً لتعلق محبته بغير الله، كما قال تعالى:

{ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ }

[البقرة، الآية: ١٦٥] وآثر نفسه به على الله، فقد بعُدَ من الله بثلاثة أوجه وهي: محبة غير الحق، والشرك، وإيثار النفس على الحق. فإن آثر الله به على نفسه وتصدّق به وأخرجه من يده، فقد زال البعد وحصل القرب، وإلا بقي محجوباً وإن أنفق من غيره أضعافه فما نال برّاً لعلمه تعالى بما ينفق وباحتجابه بغيره { كلّ الطعام كان حلاًّ لبَنِي إسْرَائِيل } أي: العقلاء بحكم الأصل، إذ العقل يحكم بأن الأشياء خلقت لمنافع العباد مطلقاً فما يكون من جملة المطعومات خلقت لتناولها { إلاّ ما حرّم إسرائيل } الروح { على نَفْسه } بالنظر العقليّ عند التجربة والقياس ومعرفة مضارها ومنافعها على التفصيل بعد الحكم الإجمالي بحلها، فإن العقل يحكم بحرمة ما يضرّ أو يهلك.

{ من قبل أن تنزّل التوراة } أي: من قبل نزول الحكم الشرعي بالتوراة وسائر الكتب الإلهية وذلك أن الناس اختلفوا بعدما كانوا أمّة واحدة على دين الحق، كما ذكر، فبعث الله النبين لهدايتهم وإصلاح أحوال معاشهم ومعادهم، وردّهم

إلى الحق والاتفاق، فما اقتضت الحكمة الإلهية بحسب أحوالهم المختلة وطباع قلوبهم المخرّفة ونفوسهم المريضة، حرمته من المألوفات والأشياء الصارفة عن الحق الحاجبة بينهم وبين الله، والمهيجة للهوى والشهوات وسائر المفاسد والفتن المانعة إياهم عن كمالهم واهتدائهم حرّم عليهم.

{ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ }

{ فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱلله غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ }

{ إن أوّل بيت وُضِعَ للناس } قيل: هو أوّل بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بألفيّ عام، وكان زبدة بيضاء على وجه الماء، فدُحِيتَ الأرض تحته. فالبيت إشارة إلى القلب الحقيقيّ، وظهوره على وجه الماء تعلقه بالنطفة عند سماء الروح الحيوانيّ، وأرض البدن وخلقه قبل الأرض إشارة إلى قدمه، وحدوث البدن وتعيينه بألفيّ عام إشارة إلى تقدّمه على البدن بطورين: طور النفس، وطور القلب. تقدّماً بالرتبة، إذ الألف رتبة تامة كما سبقت الإشارة إليه، وكونه زبدة بيضاء إشارة إلى صفاء جوهره، ودحو الأرض تحته إشارة إلى تكوّن البدن من تأثير، وكون أشكاله وتخطيطاته وصور أعضائه تابعة لهيئاته فهذا تأويل الحكاية.

واعلم أن محل تعلق الروح بالبدن، واتصال القلب الحقيقي به أولاً هو القلب الصوري، وهو أول ما يتكوّن من الأعضاء، وأول عضو يتحرك وآخر عضو يسكن فيكون أول بيت وضع للناس { للذي بِبَكّة } الصدر صورة أو أوّل متعبد ومسجد وضع للناس للقلب الحقيقي الذي ببكة الصدر المعنويّ، وذلك الصدر أشرف مقام من النفس وموضع ازدحامات القوى المتوجهة إليه { مُباركاً } ذا بركة إلهية من الفيض المتصل منه بجميع الوجود والقوّة والحياة، فإنّ جميع القوى التي في الأعضاء تسري منه أولاً إليها { وهُدىً للعَالَمين } سبب هداية ونور يهتدى به إلى الله { فيه آيات بينات } من العلوم والمعارف والحِكَم والحقائق { مقَام إبراهيم } أي: العقل الذي هو موضع قدم إبراهيم الروح، يعني محلّ اتصال نوره من القلب { ومن دَخَله } من السالكين والمتحيرين في بيداء الجهالات

{ كان آمناً } مـن إغـواء سـعالى المتحيلـة، وعفاريـت أحاديـث النفـس، واختطـاف شـياطين الوهـم، وجـنّ الخيـالات، واغتيـال سـباع القـوى النفسـانية وصفاتهـا.

{ ولله عـلى النـاس حـجّ } هـذا { البَيـت } والطـواف بـه { مـن اسـتَطَاعَ إليـهِ سَـبيلاً } مـن السـالكين، المسـتعدّين الصادقـين في الإرادة، القادريـن عـلى زاد التقـوى، وراحلـة قـوّة العـزم دون مـن عداهـم مـن الضعـاف في الاسـتعداد، القاعديـن مـن الضعـف والمـرض وسـائر الموانـع الخلقيـة أو العارضـة النفسـانية أو البدنيـة { ومـن كَفَـرَ } أي: حجـب اسـتعداده مـع القـدرة وأعـرض عنـه بهـوى النفـس { فـإنّ اللـه غنـيٌّ } عنـه و { عـنِ العَالمـين } كلهـم، أي: لا يلتفـت إليـه لبعـده وكونـه غـير قابـل لرحمتـه في ذلّ الحجـاب، وهـو أن الحرمـان مخـذولاً مـردوداً.

{ قُلْ يٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ } * { قُلْ يٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }

{ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوۤاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ }

{ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }

{ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ }

{ ومـنْ يَعْتصـم بِاللـه } بالانقطـاع عـما سـواه، والتمسـك بالتوحيـد الحقيقـيّ { فقـد هُـدي إلى صِرَاطٍ مُسْـتقيم } إذ الـصراط المسـتقيم هـو طريـق الحـق تعـالى، كـما قـال:

{ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }

[هـود، الآيـة: ٥٦]، فمـن انقطـع إليـه بالفنـاء في الوحـدة كان صراطـه صراط اللـه { اتقـوا اللـه حـقّ تُقاتـه } في بقايـا وجودكـم، فـإن حـقّ اتقائـه هـو أن يتقـى كـما يجـب، ويحـق وهـو الفنـاء فيـه، أي: اجعلـوه وقايـة لكـم في الحـذر عـن بقايـا ذواتكـم وصفاتكـم، فـإن في اللـه خلفـاً عـن كلّ مـا فـات { ولا تَمُوتـنّ } إلا عـلى حال إسـلام الوجوه له، أي: ليكـن موتكم هو الفناء في التوحيد.

{ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } { وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ }{ وَلاَ تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

{ واعْتَصِمُوا بحَبْل الله جَميعاً } أي: بعهده في قوله:**{ أَلَسْتُ بِرَبِّكُم }** [الأعراف، الآية: ١٧٢] مجتمعين على التوحيد { ولا تُفرقوا } باختلاف الأهواء، فإن التفرّق عن الحق إنما يكون باختلاف الطبائع واتباع الهوى وتجاذب القوى، والموحد عنها بمعزل، إذ تنوّر قلبه بنور الحق واستنارت نفسه من فيض القلب فتسالمت القوى وتصادقت. { واذْكروا نِعْمَةَ الله عَليكم } بالهداية إلى التوحيد المفيد للمحبة في القلوب { إذ كُنْتم أعْدَاء } لاحتجابكم بالحجب النفسانية والغواشي الطبيعية، بُعَدَاء عن النور والمقاصد الكلية التي تقبل الشركة وتزال بالاتفاق في مهوى الظلمة { فألّف بينَ قُلُوبكم } بالتحابّ في الله لتتنوّر بنوره { فأصبحتُم بِنِعْمته إخواناً } في الدين، أصدقاء في الله { وكنتم على شَفَا حُفْرة من النار } هي مهوى الطبيعة الفاسقة ومحل الحرمان والتعذيب { فأنقذكُم منها } بالتواصل الحقيقيّ بينكم إلى سدرة مقام الروح، وروح جنة الذات { كذلك يبيّن الله لكم آياته } بتجليات الصفات اللطيفة والإشراقات النورية { لعلكم تَهْتدون } إلى جماله وتجلي ذاته.

{ ولتكن منكم أمة يَدْعون إلى الخَيْر } أي: ليكن من جملتكم جماعة عالمون، عاملون، عارفون، أولو استقامة في الدين كشيوخ الطريقة { يدعونَ إلى الخَير } فإن من لم يعرف الله لم يعرف الخير، إذ الخير المطلق هو الكمال المطلق الذي يمكن للإنسان بحسب النوع من معرفة الحق تعالى، والوصول إليه، والإضافي ما يتوصل به إلى المطلق أو الكمال المخصوص بكلّ أحد على حسب اقتضاء استعداده الخاص. فالخير المدعوّ إليه، إما الحق تعالى، وإما طريق الوصول.

والمعروف كل أمر واجب أو مندوب في الدين، يتقرّب به إلى الله تعالى، والمنكر كلّ محرّم أو مكروه يبعد عن الله تعالى ويجعل فاعله عاصياً أو مقصراً مذموماً. فمن لم يكن له التوحيد والاستقامة، لم يكن له مقام الدعوة ولا مقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن غير الموحد ربما يدعو إلى طاعة غير الله وغير المستقيم فى الدين وإن كان موحداً ربما أمر بما هو معروف عنده، منكر في نفس الأمر وربما نهى عما هو منكر عنده، معروف في نفس الأمر، كمن بلغ مقام الجمع واحتجب بالحق عن الخلق، فكثيراً ما يستحلّ محرّماً كبعض المسكرات والتصرّف في أموال الناس، ويحرّم حلالاً بل مندوباً كتواضع الخلق ومكافأة الإحسان وأمثال ذلك { وأولئك هُم } الأخصاء بالفلاح، الذين لم يبق لهم حجاب وهم خلفاء الله في أرضه.{ ولا تكونوا } ناشئين بمقتضى طباعكم غير متابعين لإمام ولا متفقين على كلمة واحدة باتباع مقدم يجمعكم على طريقة واحدة { كالذين تفرقوا } واتبعوا الأهواء والبدع { واختلفوا من بعد ما جَاءَهم } الحجج العقلية والشرعية الموجبة لاتحاد الوجهة، واتفاق الكلمة. فإن للناس طبائع وغرائز مختلفة وأهواء متفرّقة، وعادات وسيراً متفاوتة، مستفادة من أمزجتهم وأهويتهم، ويترتب على ذلك فهوم متباينة، وأخلاق متعادية، فإن لم يكن لهم مقتدى وإمام تتحد عقائدهم وسيرهم وآراؤهم بمتابعته، وتتفق كلماتهم وعاداتهم وأهواؤهم بمحبته وطاعته كانوا مهملين متفرّقين فرائس للشيطان كشريدة الغنم تكون للذئب، ولهذا قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: « لا بدّ للناس من إمام برّ أو فاجر ».

{ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ }

{ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

{ تِلْكَ آيَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ }

{ وَللَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ وَإِلَىٰ ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلأُمُورُ }

{ يوم تبيض وجُوه وتَسود وجُوه } ابيضاض الوجه عبارة عن تنوّر وجه القلب بنور الحق للتوجه إليه والإعراض عن الجهة السفلية النفسانية المظلمة، وذاك لا يكون إلا بالتوحيد والاستقامة فيه بتنوّر النفس أيضاً بنور القلب. فتكون

الجملة متنوّرة بنور الله واسوداده ظلمة وجه القلب بالإقبال على النفس الطالبة حظوظها والإعراض عن الجهة النوريّة الحقيّة لمصادقة النفس ومتابعة الهوى في تحصيل لذاتها، وذلك إنما يكون باتباع السبل المتفرّقة الشيطانية.

{ فأمّا الذين اسودّت وجوههم } فيقال لهم: { أكَفَرْتم بعد إيمانكم } أي: احتجبتم عن نور الحق بصفات النفس الظلمانية، وسكنتم في ظلماتها بعد هدايتكم وتنوّركم بنور الاستعداد، وصفاء الفطرة وهداية العقل { فذوقوا } عذاب الحرمان باحتجابكم عن الحق { وأما الذين ابيضّتْ وجوههم ففي رحمة الله } التي هي روح الوصال ونور القدس وشهود الجمال { هم فيها خالدون }.

{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَاسِقُونَ }

{ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ }

{ كُنْتم خيرَ أمّة } لكونكم موحدين، قائمين بالعدل الذي هو ظله { تأمُرون بالمَعْروف وتَنْهَون عن المُنْكر } إذ لا يقدر على ذلك إلا الموحد العادل لعلمه بالمعروف والمنكر، كما مرّ في تأويل قوله:

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا }[البقرة، الآية: ١٤٣].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « نحن النمرقة الوسطى، بنا يلحق التأويل، وإلينا يرجع الغالي ». فيأمرون المقصر بالمعروف الذي يوصله إلى مقام التوحيد، وينهون الغالي المحجوب بالجمع عن التفصيل وبالوحدة عن الكثرة. { وتُؤْمنون بالله } أي: تثبتون في مقام التوحيد الذي هو الوسط، وكذا في كلّ تفريط وإفراط واعتدال في باب الأخلاق { ولو آمن أهل الكتاب } لكانوا مثلكم.{ لن يضرّوكم إلا أذى } لكونهم منقطعين عن أصل القوى والقدر، كائنين في الأشياء بالنفس التي هي محل العجز والشرّ، وأنتم معتصمون بالله، معتضدون به، كائنون في الأشياء بالحق الذي هو منبع القهر. فقدرتهم لا تبلغ إلا حدّ الطعن باللسان والخبث والإيذاء الذي هو حدّ قدرة النفس ونهايتها، وقدرتكم تفوق كلّ قدرة بالقهر والاستئصال لاتصافكم بصفات الله تعالى، فلا جرم ينهزمون منكم عند المقاتلة ولا ينصرون.

{ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُو إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ }

{ ضُرِبَتْ عليهم الذِلة } لأنّ العزّة لله جميعاً، فلا نصيب فيها لأحد إلا لمن تخلّق بصفاته بمحو صفات البشرية، كالرسول والمؤمنين الذين هم مظاهر عزّته، كما قال الله تعالى: { وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } [المنافقون، الآية: ٨]، فمن خالفهم فهو مضادّ لصفة العزّة، مباين للأعزاء، فتلزمه الذلّة وتشمله على أي حال يكون، إلا برابطة ما بينه وبين أهل العزّة كقوله: { إلا بحبل من الله وحبل من الناس } أي: ذمّة وعهد، وذلك يكون أمراً عارضياً لا أصل له مرتبطاً برابطة مجعولة فلا تقابل صفتهم الذاتية اللازمة لهم التي هي الذلّة الناشئة من أصل نفوسهم. واستحقوا غضباً شديداً من عند الله لبعدهم وإعراضهم عن الحق، ولزمتهم المسكنة لانقطاعهم عن الله إلى نفوسهم فوكلهم إلى أنفسهم.

{ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ ٱللَّهِ آنَآءَ ٱللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ } * { يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـٰئِكَ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ }

{ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَروهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ }

{ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْئاً وَأُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } { مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُو أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

{ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمّة قائمة } أي: بالله، ثم وصفهم بأحوال أهل الاستقامة، أي منهم أهل التوحيد والاستقامة { وما يفعلوا من خير فلن يكفروه } أي: كل ما يصدر منكم مما يقربكم عند الله يتصل به جزاؤه ومنه لن تحرموا شيئاً منه. قال الله تعالى: « من تقرب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذِراعاً، ومَن تقرّب إليّ

ذِرَاعـاً تقرّبـت إليـه بَاعـاً، ومـن أتـاني مشـياً أتيتـه هَرْوَلَـة « .. الحديـث. وقـال تعـالى: « أنـا جَلِيـس مـن ذَكَـرني، وأنيـس مـن شَـكَرني، ومُطِيـع مـن أطاعَنـي « أي: كـما أطعتمـوه بتصفيـة الاسـتعداد والتوجـه نحـوه، أطاعكـم بإفاضـة الفيـض على حسـبه والإقبـال إليكم { واللـه عَلِيـم } بالذيـن اتّقـوا مـا يحجبهـم عنـه فيتجلى لهـم بقـدر زوال الحجـاب.

{ مثَـل مـا ينفقـون في هـذه الحيـاة الدنيـا } الفانيـة ولذاتهـا السريعـة الـزوال، طلبـاً للشـهوات أو ريـاء وسـمعة في المفاخـر، وطلـب محمَـدَة النـاس، لا يطلبـون بـه وجـه الله، ومـا تهلكـه وتفنيـه بالكليّـة مـن ريـح هـوى النفـس التـي فيهـا بـرد دنياتكـم الفاسـدة وأغراضكـم الباطلـة كالريـاء ونحـوه { كمثـل ريـح فيهـا صرّ أصابـت حـرث قـوم ظلمـوا أنفسـهم } بالـشرك والكفـر { فأهلكتـه } عقوبـة مـن اللـه لظلمهـم { ومـا ظلمهـم اللـه } بإهـلاك حرثهـم { ولكـن } كانـوا أنفسـهم يظلمـون لأنـه مسـبب عـن ظلمهـم، كما قيل: مهلاً فيداك، وكتا وفوك نفخ.

{ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالا ً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ }

{ لا تتخـذوا بطانـة مـن دونكـم } بطانـة الرجـل صفيـه وخليصـه الـذي يبطنـه ويطلـع عليـه أسراره، ولا يمكـن وجـود مثـل هـذا الصديـق إلا إذا اتحـدا في المقصـد واتفقـا في الديـن والصفـة، متحابـين في اللـه لا لغـرض كـما قيـل في الأصدقـاء: نفـس واحـدة في أبدان متفرّقـة، فـإذا كان مـن غـير أهـل الإيمـان فبـأن يكـون كاشـحاً أحـرى. ثـم بـيّن نفاقـه واسـتبطانه العـداوة بقولـه: { لا يألونكـم خبـالاً } إلى آخـره، إذ المحبـة الحقيقيـة الخالصـة لا تكـون إلا بـين الموحديـن، لكونهـا ظـلّ الوحـدة فـلا تكـون بـين المحجوبـين لكونهـم في عـالم التضـادّ والظلمـة. فأيـن الصفـاء والوفـاق في عالمهـم؟ بـل ربمـا تتآلفهـم الجنسـية العامـة الإنسـانية لاشـتراكهم في النـوع والمنافـع والمـلاذ واحتياجهـم إلى التعـاون فيهـا، فإذا لم تتحصـل أغراضهـم مـن النفـع واللـذّة تهارشـوا وتباغضـوا وبطلـت الإلفـة التـي كانـت بينهـم، لكونهـا مسـببة عـن أمـر قـد تغـير إذ النفـس منشـأ التغـير والمنافـع الدنيويـة لا تبقـى بحالهـا، واللـذات النفسـانية سريعـة الانقضـاء فـلا تـدوم المحبـة عليهـا بخـلاف المحبـة الأولى، فإنهـا مسـتندة إلى أمـر لا تغـير فيـه أصـلاً. هـذا إذا كانـت فيـما بينهـم،

فكيف إذا كانت بينهم وبين من يخالفهم في الأصل والوصف؟ وأنّى يتجانس النور والظلمة؟ ومن أين يتوافق العلو والسفل؟ فبينهما عداوة حقيقية وتخالف ذاتي لا تخفى آثاره كما بيّن الله تعالى بقوله: { قد بدت البغضاء من أفواههم } لامتناع اختفاء الوصف الذاتيّ. قال النبي صلى الله عليه وسلم: « ما أضمر أحد شيئاً إلا وأظهره الله في فلتات لسانه وصفحات وجهه » { وما تخفي صدورهم أكبر } لأنه نار وهذا شرار، ذاك أصل، وهذا فرعه { قد بيّنا لكم الآيات } دلائل المحبة والعداوة وأسبابهما { إن كنتم تعقلون } أي: تفهمون من فحوى الكلام.

{ هَآأَنْتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوۤاْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ }

{ ها أنتم أولاء تحبونهم } بمقتضى التوحيد، إذ الموحد يحب الناس كلهم بالحق للحق، ويراهم متصلين بنفسه اتصال الأحماء والأقرباء بل اتصال الأجزاء، فينظر إليهم بنظر الرحمة الإلهية والرأفة الربانية، ويعطف عليهم مترحماً إذ يراهم أهل الرحمة شغلوا بالباطل، وابتلوا بالقدر ولا يحبونكم بمقتضى الحجاب والبقاء في ظلمة النفس وتضادّ الطبع.{ وتُؤمِنون بالكتاب } أي بجنس الكتاب { كله } لشمول علمكم التوحيدي، ولا يؤمنون للتقيد بدينهم والاحتجاب بما هم عليه

{ وإذا لقوكم قالوا آمنا } لنفاقهم المستجلب لأغراضهم العاجلة { وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ } لحقدهم الذاتي وبغضهم الكامن والباقي ظاهر.

{ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ }

{ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

{ إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ }

{ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

{ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ }

{ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ }

{ وإن تصْبِروا } على ما يبتليكم الله به من الشدائد والمحن والمصائب، وتثبتوا على مقتضى التوحيد والطاعة { وتتقوا } الاستعانة بهم في أموركم والالتجاء إلى ولايتهم { لا يضرّكم كيدهم شيئاً } لأن المتوكل على الله، الصابر على بلائه، المستعين به لا بغيره، ظافر في طلبته، غالب على خصمه، محفوظ بحسن كلاءة ربه، والمستعين بغيره مخذول موكول إلى نفسه، محروم عن نصرة ربه. كما قال الشاعر:

من استعان بغير الله في طلب — فإن ناصره عجز وخذلان

{ إن الله بما يعملون } من المكايد { محيط } فيبطلها ويهلكها، وقد قيل:

إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك. فالصبر والتقوى من أجمل الفضائل إن لزمتموهما تظفروا على عدوّكم.

{ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم } الآية... الصبر على مضض الجهاد وبذل النفس في طاعة الله، وتحمل المكروه طلباً لرضا الله لا يكون إلا عند التقوى بتأييد الحق وتنوّره بنور اليقين، وثباته بنزول السكينة والطمأنينة عليه، والتقوى في مخالفة أمر الحق والميل إلى النفع والغنيمة، وخوف تلف النفس لا تكون إلا عند انكسار النفس تحت قهر سلطان القلب والروح، إذ الثبات والوقار صفة الروح والطيش، والاضطراب صفة النفس، فإذا استولى سلطان الروح على القلب وأخذ مملكته عصمه من استيلاء صفات النفس وجنودها عليه، فيعشقه القلب ويسكن إليه لنورانيته المحبوبة لذاتها ويتقوّى به على النفس وقواها فيهزمها ويكسرها ويدفع غلبتها وظلمتها عن نفسه، ويجعلها ذلولاً مطيعة مطمئنة إليه فيزول عنها الاضطراب وتتنوّر بنوره وعند ذلك تنزل الرحمة، ويناسب القلب ملكوت السماء في نورانيتها وقهرها لما تحتها، ومحبتها وشوقها لما فوقها.

وبذلك التناسب يصل بها ويستنزل قواها وأوصافها في أفعاله خصوصاً عند اهتياجه وانقلاعه عن الجهة السفلية، وانقطاعه بقوة اليقين والتوكل إلى الجهة العلوية.

ويستمد من قوى قهرها على من يغضب عليه فذلك نزول الملائكة، وإذا جزع وهلع وتغير وخاف أو مال إلى الدنيا غلبته النفس وقهرته واستولت عليه وحجبته بظلمة صفاتها عن النور، فلم تبق تلك المناسبة، فانقطع المدد ولم تنزل الملائكة.

{ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ
وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ }

{ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ }

{ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ }

{ وَللَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

{ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَٰواْ أَضْعَٰفاً مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

{ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ }

{ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }

{ وما جعله الله إلا بُشرى لكم } أي: ما جعل الإمداد بالملائكة إلا لتستبشروا به فتزداد قوة قلوبكم وشجاعتكم ونجدتكم ونشاطكم في التوجه إلى الحق والتجريد للسلوك { ولتطمئن به قلوبكم } فتتحقق الفيض بقدر التصفية والخلف بقدر الترك. { وما النصر إلاّ من عند الله } لا من الملائكة ولا من غيرهم، فلا تحتجبوا بالكثرة عن الوحدة، ولا بالخلق عن الحق، فإنها مظاهر لا حقيقة لها ولا تأثير، { العزيز } القوي الغالب بقهره { الحكيم } الذي ستر قهره ونصرته بصور الملائكة بحكمته.

{ ليقطع طرفاً من الذين كفروا } يقتل بعضهم تقوية للمؤمنين { أو يكبتهم } يخزيهم ويذلهم بالهزيمة إعزازاً للمؤمنين { أو يتوب عليهم } بالإسلام تكثيراً لسواد المؤمنين { أو يعذبهم } بسبب ظلمهم وإصرارهم على الكفر تفريحاً للمؤمنين. وأوقع بين المعطوف والمعطوف عليه في أثناء الكلام قوله: { ليس لك من الأمر في شيء } اعتراضاً لئلا يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيرى لنفسه تأثيراً في بعض هذه الأمور، فيحتجب عن التوحيد ولا يزول، وتتغير شهوده في الأقسام كلها، أي: ليس لك من أمرهم شيء كيفما كان، ما أنت إلاّ بشر مأمور بالإنذار، إن

عليك إلاّ البلاغ، إنما أمرهم إلى الله { يا أيها الذين آمنُوا لا تأكلوا الرِبا } أي: توكلوا على الله في طلب الرزق فلا تكسبوه بالربا، فإنه واجب عليكم كما يجب عليكم التوكل عليه في طلب الفتح وجهاد العدوّ لئلا تجبنوا بكلاءة الله وحفظه. واعلموا أن جزاء المرابي هو جزاء الكافر، فاحذروه لكونه محجوباً عن أفعاله تعالى كما أن الكافر محجوب عن صفاته وذاته، والمحجوب غير قابل للرحمة وإن اتسعت، فارفعوا الحجاب بالطاعة وترك المخالفة كي تدرككم رحمة الله.

{ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ } { ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ }

{ وسارِعُوا إلى } ستر أفعالكم التي هي حجابكم عن مشاهدة أفعال الحق بأفعاله تعالى، فإنما حرمتم عن التوكل وجنة عالم المُلْك التي هي تجلي الأفعال برؤية أفعالكم، أي: إلى ما يوجب ستر أفعالكم بأفعاله، وجنّة الأفعال من الطاعات بعد كما ورد: « أعوذ بعفوك من عقابك « ولأن المراد بالجنّة هنا جنة الأفعال، وصف عرضها بمساواة عرض السموات والأرض، إذ توحيد الأفعال هو توحيد عالم الملك وإنما قدّر طولها لأن الأفعال باعتبار السلسلة العرضية، وهي توقف كل فعل على فعل آخر تنحصر في عالم المُلك الذي يتقدّره الناس.

وأما باعتبار الطول فلا تنحصر فيه ولا يقدّرها، إذ الفعل مظهر الوصف، والوصف مظهر الذات، فلا نهاية له ولا حدّ. فالمحجوبون عن الذات والصفات لا يرون إلا عرض هذه الجنّة، وأما البارزون لله الواحد القهار فعرض جنتهم عين طولها ولا حدّ لطولها فلا يقدر قدرها طولاً ولا عرضاً.

{ أعدّت للمتقين } الذين يتقون حجب أفعالهم وشرك نسبة الأفعال إلى غير الحق. { الذينَ ينفقون في السرّاء والضرّاء } لا تمنعهم الأحوال المضادّة عن الإنفاق لصحة توكلهم على الله برؤية جميع الأفعال منه { والكاظمين الغيظ } لذلك أيضاً، إذ يرون الجناية عليهم فعل الله فلا يعترضون، ولو لم يغيظوا كانوا في مقام الرضا وجنة الصفات { والعافين عن الناس } لما ذكرنا، ولتعوذهم بعفوه تعالى عن عقابه { والله يحبّ المحسنين } الذين يشاهدون تجليات أفعاله تعالى.

{ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلاَّ ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }

{ أُوْلَـٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ }

{ والذين إذا فَعَلوا فاحشة } كبيرة من الكبائر، برؤية أفعالهم صادرة عن قدرتهم { أو ظلموا أنفسهم } نقصوا حقوقها بارتكاب الصغائر وظهور أنفسهم فيها { ذكروا الله } في صدور أفعالهم برؤيتها واقعة بقدرة الله وتبرأ عنها إليه لرؤيتهم ابتلاءه إياهم بها { فاستغفروا } طلبوا ستر أفعالهم التي هي ذنوبهم بأفعاله بالتبرّي عن الحول والقوّة إليه { ومن يغفر الذنوب } أي وجودات الأفعال { إلا الله } أي علموا أن لا غافر إلا هو { ولم يصرّوا على ما فَعَلوا } في غفلتهم وحالة ظهور أنفسهم، بل تابوا ورجعوا إليه في أفعالهم { وهم يَعْلَمُون } أن لا فعل إلا الله { ونِعْمَ أجر العاملين } بمقتضى توحيد الأفعال.

{ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلأَرْضِ فَٱنْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ } * { هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ }

{ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ }

{ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ } { وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ }

{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّابِرِينَ }

{ قد خلَتْ من قَبْلِكم } بطشات ووقائع مما سنّه الله في أفعاله بالذين كذبوا بالأنبياء في توحيد الأفعال { فسيروا في الأرض فانْظروا } في آثارها فتعلموا كيف كان عاقبتهم { هذا } الذي ذكر { بيان للناس } من علم توحيد الأفعال وتفصيل المتقين الذين هم أهل التمكين في ذلك، والتائبين الذين هم أهل التلوين، والمصرين

المحجوبين عنه المكذبين به، وزيادة هدى وكشف عيان وتثبت واتعاظ للذين اتّقوا رؤية أفعالهم أو هدى لهم إلى توحيد الصفات والذات. { ولا تَهنوا } في الجهاد عند استيلاء الكفار { ولا تَحزنوا } على ما فاتكم من الفتح وما جرح واستشهد من إخوانكم { وأنتُم الأعْلَون } في الرتبة لقربكم من الله وعلو درجتكم بكونكم أهل الله { إن كنتم } موحدين، لأنّ الموحد يرى ما يجري عليه من البلاء من الله فأقلّ درجاته الصبر إن لم يكن رضا يتقوّى به فلا يحظن ولا يهن { الأيام } الوقائع وكل ما يحدث من الأمور العظيمة يسمى يوماً وأياماً، كما قال تعالى:

{ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ ٱللَّهِ }

[إبراهيم، الآية: ٥] وقد مرّ تفسير { وليعلم الله } من ظهور العلم التفصيلي التابع لوقوع المعلوم.{ ويتخذ مِنكم شُهداء } الذين يشهدون للحق فيذهلون عن أنفسهم، أي: نداول الوقائع بين الناس لأمور شتى وحِكَم كثيرة، غير مذكورة، من خروج ما في استعدادهم إلى الفعل من الصبر والجلد وقوّة اليقين، وقلّة المبالاة بالنفس، واستيلاء القلب عليها، وقمعها وغير ذلك.

ولهذين العلتين المذكورتين ولتخليص المؤمنين من الذنوب والغواشي التي تبعدهم من الله بالعقوبة والبليّة إذا كانت عليهم، ومحق الكافرين وقهرهم وتدميرهم إذا كانت لهم.

وقد اعترض بين العلل قوله: { والله لا يحب الظالمينَ } ليعلم أنّ من ليس على صفة الإيمان والشهادة وتمحيص الذنوب وقوّة الثبات لكمال اليقين، بل حضر القتال لطلب الغنيمة أو لغرض آخر فهو ظالم والله لا يحبه.

{ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تنظُرُونَ }

{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ

أَفإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ

فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّاكِرِينَ }

{ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه } الآية، كل موقن إذا لم يكن يقينه ملكة بل كان خطرات، فهو في بعض أحواله يتمنى أموراً ويدعي أحوالاً بحسب نفسه دائماً، وكذلك حال غير اليقين وعند إقبال القلب هو صادق ما دام

موصوفاً بحاله. أما في غير تلك الحالة، وعند الإدبار، فلا يبقى من ذلك أثر وكذا كل من لم يشاهد حالاً ولم يمارسه، ربما يتمناه لتصوّره في نفسه وعدم تضرّره به حال التصور. أما في حال وقوعه وابتلائه فلا يطيق تحمل شدائده كما حكي عن سمنون المحبّ رحمه الله لما قال في أبياته:

فكيفما شئت فاختبرني

فابتلي بالأسر، فلم يطق، فكان يتردّد في الطرق ويرضخ إلى الصبيان ما يلعبون به كالجوز، ويقول: ادعوا على عمكم الكذاب. وفي هذا المعنى قال الشاعر:

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

فلا يلتفت بحال إلا إذا صار مقاماً، ولا يعتبر مقاماً إلا إذا امتحن في مواطنه، فإذا خلص من الامتحان فقد صح وهذا أحد فوائد مداولة الأيام بينهم ليتمرّنوا بالموت ويتقوّى يقينهم ويتوفر صبرهم ويتحقق مقامهم بالمشاهدة كما قال: { فقد رأيتموه } من قتل إخوانكم بين أيديكم { وأنتم } تشاهدون ذلك. وفيه توبيخ لهم على أنّ يقينهم كان حالاً لا مقاماً، ففشلوا في الموطن.

{ وما محمد إلا رسول } أي: إنه رسول بشر، سيموت أو يقتل كحال الأنبياء قبله، فمن كان على يقين من دينه فبصيرة من ربّه لا يرتد بموت الرسول وقتله، ولا يفتر عما كان عليه، لأنه يجاهد لربّه لا للرسول كأصحاب الأنبياء السالفين. وكما قال أنس عم أنس بن مالك يوم أُحد حين أُرجف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاع الخبر، وانهزم المسلمون، وبلغ إليه تقاول بعضهم:

ليت فلاناً يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان. وقول المنافقين: لو كان نبيّاً ما قُتِلَ!، يا قوم، إن كان محمد قد قُتِل فإنّ ربّ محمد حيّ لا يموت!، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه.

ثم قال: اللهمّ إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء.

ثم شدّ بسيفه وقاتل حتى قُتِل.

{ ومن يَنْقلب على عَقبيه فلن يضرّ الله شيئاً } إنما ضرّ نفسه بنفاقه وضعف يقينه { وسيجزي الله الشاكرين } لنعمة الإسلام، كأنس بن النضر وأضرابه من الموقنين.

{ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللهِ كِتَٰباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ }

{ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ }

{ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيۤ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وٱنْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ }{ فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلآخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ }{ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوۤاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ }

{ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّاصِرِينَ }{ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَىٰ ٱلظَّالِمِينَ }

{ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً } فمن كان موقناً شاهد هذا المعنى، فكان من أشجع الناس كما حكى حاتم بن الأصمّ عن نفسه أنه شهد مع الشقيق البلخي رحمهما الله، بعض غزوات خراسان. قال: فلقيني شقيق وقد حمى الحرب، فقال: كيف تجد قلبك يا حاتم؟ قلت: كما كان ليلة الزفاف، بين الحالين. فوضع سلاحه وقال: أما أنا فهكذا.ووضع رأسه على ترسه ونام بين المعركة حتى سمعت غطيطه. وهذا غاية في سكون القلب إلى الله ووثوقه به لقوة اليقين{ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب } الآية، جعل إلقاء الرعب في قلوب الكفار مسبباً عن شركهم، لأن الشجاعة وسائر الفضائل اعتدالات في قوى النفس من وقوع ظل الوحدة عليها عند تنوّرها بنور القلب المنوّر بنور الوحدة، فلا تكون تامة حقيقة إلا للموحد الموقن في توحيده. وأما المشرك فلأنه محجوب عن منبع القوة والقدرة بما أشرك بالله من الموجود المشوب بالعدم لإمكانه الخفيّ الوجود، الضعيف، الذي لم يكن له بحسب نفسه قوة ولا وجود ولا ذات في الحقيقة، ولم ينزل الله بوجوده حجة لوجوده أصلاً لتحقق عدمه بحسب ذاته، فليس له إلا العجز والجبن وجميع الرذائل، إذ لا يكون أقوى من معبوده وإن اتفقت له دولة أو صولة أو شوكة فشيء لا أصل له ولا ثبات ولا بقاء كنار العرفج مثلما كانت دولة المشركين.

{ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ
حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَآ أَرَاكُم
مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ
لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ }
{ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَىٰ أحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيۤ أُخْرَٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمّاً
بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }

{ ولقد صدقكم الله وعده } أي: وعدكم النصر إن تصبروا وتتقوا، فما دمتم على حالكم من قوة الصبر على الجهاد وتيقن النصر والثبات على اليقين واتفاق الكلمة بالتوجه إلى الحق والاتقاء عن مخالفة الرسول وميل النفوس إلى زخرف الدنيا والإعراض عن الحق، مجاهدين لله لا للدنيا، كان الله معكم بالنصر، وإنجاز الوعد، وكنتم تقطعونهم بإذنه وتهزمونهم { حتى إذا فَشلْتُم } أي: جبنتم بدخول الضعف في يقينكم وفساد اعتقادكم في حق نفسه بتجويز غلوله في الغنيمة { وتَنازَعتم } في أمر الحرب بعد الاتفاق وما صبرتم عن حظ الدنيا، وعصيتم الرسول بترك ما أمركم به من ملازمة المركز، وملتم إلى زخرف الدنيا { من بعدِ ما أرَاكم ما تحبون } من الفتح والغنيمة وحان زمان شكركم لله، وشدّة إقبالكم عليه، فذهلتم عنه، فكان أشرفكم يريد الآخرة والباقون يريدون الدنيا، ولم يبق فيكم من يريد الله منعكم نصره { ثم صرفكم عنهم ليَبْتَليكم } بما فعلتم فكان الابتلاء لطفاً بكم وفضلاً { والله ذو فضل على المؤمنين } في الأحوال كلها، إما بالنصرة وإما بالابتلاء، فإن الابتلاء فضل ولطف خفيّ ليعلموا أن أحوال العباد جالبة لظهور أوصاف الحق عليهم فما أعدّوا له نفوسهم موهوب لهم من عند الله كما مر في قوله: « مطيع من أطاعني ». كما يكونون مع الله يكون الله معهم، ولئلا يناموا إلى الأحوال دون المسلكات، وليتمرّنوا بالصبر على الشدائد، والثبات في المواطن، ويتمكنوا في اليقين، ويجعلوه ملكاً لهم، ومقاماً، ويتحققوا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولا يميلوا إلى الدنيا وزخرفها، ولا يذهلوا عن الحق، ولا يبيعوه بالدنيا والآخرة، وليكون عقوبة عاجلة للبعض فيتمحصوا عن ذنوبهم

وينالوا درجة الشهادة برفع الحجب، خصوصاً حجاب محبة النفس، فيلقوا الله طاهرين. ولهذا قال تعالى: { وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ }

[آل عمران: ١٥٢]، إذ الابتلاء كان سبب العفو.{ فأثابكم غمّاً بغمّ }

أي: صرفكم عنهم فجازاكم غماً بسبب غمّ لحق رسول الله من جهتكم، بعصيانكم إيّاه، وفشلكم وتنازعكم، أو غمّاً بعد بغمّ أي: غمّاً مضاعفاً لتتمرّنوا بالصبر على الشدائد والثبات فيها، وتتعوّدوا رؤية الغلبة والظفر والغنيمة وجميع الأشياء من الله لا من أنفسكم فلا { تحزنوا على ما فَاتَكم } من الحظوظ والمنافع { ولا ما أصَابكم } من الغموم والمضارّ.

{ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ }

{ ثمّ } خلّى عنكم الغمّ بالأمن وإلقاء النعاس على الطائفة الصادقين دون المنافقين الذين { أهمتهم أنفسهم } لا نفس الرسول ولا الذين وافقوا علامة للعفو { لبرزَ الذين كُتِب عليهم القَتل إلى مضاجعهم } لقوله تعالى:

{ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ }

[الحديد، الآية: ٢٢]. { وليَبْتَلي الله ما في صُدُوركم } أي: وليمتحن ما في استعدادكم من الصدق والإخلاص واليقين والصبر والتوكل والتجرّد وجميع الأخلاق والمقامات، ويخرجها من القوّة إلى الفعل { وليمحص ما في قلوبكم } أي: وليخلص ما برز منها من مكمن الصدر إلى مخزون القلب من عثرات وساوس الشيطان ودناءة الأحوال وخواطر النفس، فعل ذلك فإن البلاء سوط من سياط الله يسوق به عباده إليه بتصفيتهم عن صفات نفوسهم وإظهار ما فيهم من الكمالات، وانقطاعهم

عنده من الخلق ومن النفس إلى الحق. ولهذا كان متوكلاً بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بياناً لفضله: « ما أوذي نبيّ مثل ما أُوذيت « ، كأنه قال: ما صفى نبيّ مثل ما صفيت. ولقد أحسن من قال:

لله درّ انائبات فإنها   صدأ اللئام وصيقل الأحرار

إذ لا يظهر على كل منهم إلا ما في مكمن استعداده كما قيل: عند الامتحان يُكْرم الرجل أو يُهَان.

{ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ }

{ اسْتَزَلهم } أي: طلب منهم الزلّة ودعاهم إليها، وهي زلّة التولي

{ ببعض ما كسبوا } من الذنوب. فإنّ الشيطان إنما يقدر على وسوسة الناس وإنفاذ أمره إذا كان له مجال بسبب أدنى ظلمة في القلب، حادثة من ذنب، وحركة من النفس كما قيل: الذنب بعد الذنب عقوبة للذنب الأول.

{ ولقد عفا الله عنهم } بالاعتذار والندم.

{ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِنْدَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

{ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }

{ وَلَئِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى ٱلله تُحْشَرُونَ }

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ }

{ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ }

{ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم } أي: يجعل ذلك القول والاعتقاد ضِيقاً

وضنكاً وغمّاً في قلوبهم لرؤيتهم القتل والموت مسبباً عن فعل، ولو كانوا موقنين موحدين لرأوا أنه من الله، فكانوا منشرحي الصدور { والله يُحْيِي } من يشاء في السفر والجهاد وغيره { ويُمِيت } من يشاء في الحضر وغيره

{ لمغفرة من الله ورحمة } أي: لنعيمكم الأخروي من جنّة الأفعال وجنّة الصفات خير لكم من الدنيوي لكونكم عاملين للآخرة و { لإلى الله تُحْشَرون } لمكان توحيدكم، فحالكم فيما بعد الموت أحسن من حالكم قبله.

{ فبما رحمة من الله } أي فباتصافك برحمة رحيمية، أي: رحمة تامّة، كاملة، وافرة، هي صفة من جملة صفات الله، تابعة لوجودك الموهوب الإلهيّ لا الوجود البشريّ { لِنْتَ لهم ولو كنت فَظاً } موصوفاً بصفات النفس التي منها الفظاظة والغلظة { لانْفَضوا من حَولك } لأنّ الرحمة الإلهية الموجبة لمحبتهم إياك تجمعهم { فاعف عنهم } فيما يتعلق بك من جنايتهم لرؤيتك إياه من الله بنظر التوحيد وعلوّ مقامك من التأذي بفعل البشر، والتغيظ من أفعالهم، وتشفي الغيظ بالانتقام منهم { واستغْفِر لهم } فيما يتعلق بحق الله لمكان غفلتهم وندامتهم واعتذارهم { وشَاورهم } في أمر الحرب وغيره مراعاة لهم واحتراماً، ولكن إذا عزمت ففوّض الأمر إلى الله بالتوكل عليه ورؤية جميع الأفعال والفتح والنصر والعلم بالأصلح والأرشد منه، لا منك، ولا ممّن تشاوره.

ثم حقّق معنى التوكل والتوحيد في الأفعال بقوله: { إن يَنْصركم الله } إلى آخره.

{ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }{ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ ٱللَّهِ كَمَن بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ }

{ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ }

{ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ } { أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

{ وَمَآ أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ }
{ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ }
{ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ }{ وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }

{ وما كان لنبيّ أن يغلّ } لبعد مقام النبوّة وعصمة الأنبياء عن جميع الرذائل، وامتناع صدور ذلك منهم مع كونهم منسلخين عن صفات البشرية، معصومين عن تأثير دواعي النفس والشيطان فيهم، قائمين بالله متّصفين بصفاته
{ يأت بما غلّ } أي: يظهر على صورة غلوله بما غلّ بعينه.
{ أفَمَن اتّبع رضوان الله } أي: النبيّ في مقام الرضوان التي هي جنة الصفات، لاتصافه بصفات الله، والغالّ في مقام السخط لاحتجابه بصفات نفسه { ومأواه } أسفل حضيض النفس المظلمة، فهل يتشابهان؟ { هم درجات }
أي: كل من أهل الرضا وأهل السخط ذوو درجات متفاوتات أو هم مختلفون اختلاف الدرجات { قل هو من عند أنفسكم } لا ينافي قوله تعالى:

{ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ }

[النساء، الآية: ٧٨] لأنّ السبب الفاعلي في الجميع هو الحق تعالى، والسبب القابليّ أنفسهم، ولا يفيض من الفاعل إلا ما يليق بالاستعداد ويقتضيه، وباعتبار الفاعل يكون من عند الله، وباعتبار القابل يكون من عند أنفسهم. واستعداد الأنفس إما أصليّ وإما عارضيّ، والأصلي من فيضه الأقدس على مقتضى مشيئته، والعارضي من اقتضاء قدره. فهذا الجانب أيضاً ينتهي إليه، ومن وجه آخر ما يكون من أنفسهم أيضاً يكون من الله نظراً إلى التوحيد، إذ لا غير ثمة { وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا } أي: وليتميز المؤمنون والمنافقون في العلم التفصيليّ.

{ ولا تحسبن الذين قُتِلوا في سبيل الله } سواء كان قتلهم بالجهاد الأصغر، وبذل النفس طلباً لرضا الله، أو بالجهاد الأكبر، وكسر النفس، وقمع الهوى بالرياضة { أمواتاً بل أحياء عند ربّهم } بالحياة الحقيقية مجرّدين عن دنس الطبائع، مقرّبين في حضرة القدس { يُرْزَقون } من الأرزاق المعنوية، أي المعارف والحقائق واستشراق الأنوار، ويرزقون في الجنّة الصورية كما يُرْزق سائر الأحياء. فإنّ للجنان مراتب بعضها معنوية وبعضها صورية، ولكل من المعنوية والصورية درجات على حسب الأعمال، فالمعنوية جنّة الذات وجنة الصفات وتفاضل درجاتها على حسب تفاضل درجات أهل الجبروت والملكوت، والصدورية جنّة الأفعال وتفاوت درجاتها على حسب تفاوت درجات عالم المُلك من السموات العلى، وجنات الدنيا وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم: « لما أُصِيبَ إخوانكم بأُحد، جَعَل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، تدور في أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب، معلقة في ظلّ العرش « فالطير الخضر: إشارة إلى الأجرام السماوية، والقناديل هي الكواكب، أي تعلقت بالنيرات من الأجرام السماوية لنزاهتها، وأنهار الجنة منابع العلوم ومشارعها، وثمارها الأحوال والمعارف والأنهار، والثمار الصورية على حسب جنتهم المعنوية أو الصورية. فإنّ كل ما وجد في الدنيا من المطاعم والمشارب والمناكح والملابس وسائر الملاذ والمشتهيات، موجود في الآخرة وفي طبقات السماء ألذّ وأصفى مما في الدنيا.

{ فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }

{ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ } { ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ }

{ فرحين بما آتاهم الله من فضله } من الكرامة والنعمة والقرب عند الله { ويستبشرون } بحال إخوانهم { الذين لم يلحقوا بهم من من خلفهم } ولم ينالوا درجاتهم بعد من خلفهم لاستعدادهم عن قريب بمثل حالهم ولحوقهم بهم { ألا خَوْف عليهم ولا هم يَحْزنون } بدل اشتمال من الذين، أي: يستبشرون

بأنهم آمنوا، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون { يستبشرون بنعمة }أي: أمنهم بنعمة عظيمة لا يعلم كنهها، هي جنة الصفات بحصول مقام الرضوان المذكورة بعده لهم { وفضل } وزيادة عليها هي جنة الذات والأمن الكليّ من بقية الوجود وذلك كمال كونهم شهداء لله، ومع ذلك فإنّ الله لا يُضيع أجر إيمانهم الذي هو جنة الأفعال وثواب الأعمال. { الذين استجابوا لله } بالفناء في الوحدة الذاتية { والرسول } بالمقام بحق الاستقامة { من بعد ما أصابهم القرح } أي: كسر النفس { للذين أحسنوا منهم } أي: ثبتوا في مقام المشاهدة { واتقوا } بقاياهم { أجر عظيم } وراء الإيمان هو روح المشاهدة.

{ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ }

{ فَٱنْقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ }{ إِنَّمَا ذٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ }

{ وَلاَ يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي ٱلآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

{ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئاً وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

{ وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ }

{ الذين قال لهم الناس } قبل الوصول إلى المشاهدة { إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم } أي: اعتبروا لوجودكم واعتدّوا بكم فاعتدوا بهم { فزادهم } ذلك القول { إيماناً } أي: يقيناً وتوحيداً بنفي الغير وعدم المبالاة به، وتوصلوا بنفي ما سوى الله إلى إثباته بقولهم { حسبنا الله } فشاهدوه ثم رجعوا إلى تفاصيل الصفات بالاستقامة فقالوا: { ونِعْمَ الوكيل } وهي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقِيَ في النار فصارت برداً وسلاماً عليه

{ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل } أي: رجعوا بالوجود الحقانيّ في جنة الصفات

والـذات كـما مـرّ آنفـاً { لم يمسسـهم سـوء } البقيـة ورؤيـة الغـير{ و } هـم { اتّبعـوا رضـوان اللـه } الـذي هـو جنـة الصفـات في حـال سـلوكهم حـين لم يعلمـوا مـا أُخفـي لهـم مـن قـرّة أعـين وهـي جنـة الـذات المشـار إليهـا بقولـه: { واللـه ذو فضـل عظيـم } فـإن الفضـل هـو المزيـد عـلى الرضـوان { يخـوف أوليـاءه } المحجوبـين بأنفسـهم مثلـه مـن النـاس أو يخوّفكـم أوليـاءه { فـلا تخافوهـم } ولا تعتـدوا بوجودهـم { وخافـونِ إن كنتـم } موحديـن، أي لا تخافـوا غـيري لعـدم عينـه وأثـره { ولا يحزنـك الذيـن يسـارعون في الكفـر } لحجابهـم الأصـلي وظلمتهـم الذاتيـة خـوف أن يـضروك

{ إنهـم لـن يـضرّوا اللـه شـيئاً } إمـلاء الكفـار وطـول حياتهـم سـبب لشـدّة عذابهـم وغايـة هوانهـم وصغارهـم لازديادهـم بطـول عمرهـم حجابـاً عـلى حجـاب، وبعـداً عـلى بعـد. وكلـما ازدادوا بعـداً عـن الحـق الـذي هـو منيـع العـزّة ازدادوا هوانـاً.

{ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَآءُ فَآمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ }

{ وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَللَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }

{ مـا كان اللـه ليـذر المؤمنـين عـلى مـا أنتـم عليـه } مـن ظاهـر الإسـلام وتصديـق اللسـان { حتـى يميـز الخبيـث } مـن صفـات النفـس وشـكوك الوهـم وحظـوظ الشـيطان، ودواعـي الهـوى مـن طيبـات صفـات القلـب كالإخـلاص واليقـين والمكاشـفة ومشـاهدات الـروح ومناغيـات الـسرّ ومسـامراته، وتخلـص المعرفـة والمحبـة للـه بالابتـلاء ووقـوع الفـتن والمصائـب بينكـم.

{ ومـا كان اللـه ليطلعكـم عـلى } غيـب وجودكـم مـن الحقائـق والأحـوال الكامنـة فيكـم بـلا واسـطة الرسـول لبعـد مـا بينكـم وبينـه وعـدم المناسـبة وانتفـاء اسـتعداد التلقـي منـه { ولكـن اللـه يجتبـي مـن رسـله مـن يشـاء } فيطلعـه عـلى أسراره وحقائقـه بالكشـف ليهديكـم إلى مـا غـاب عنكـم مـن كنـوز وجودكـم وأسراره للجنسـية النفسـانية التـي بينـه وبينكـم، الموجبـة لإمـكان اهتدائكـم بـه { فآمنـوا باللـه ورسـله } بالتصديـق

القلبيّ والإرادة والتمسك بالشريعة ليمكنكم التلقي والقبول منهم { وإن تؤمنوا } بعد ذلك الإيمان بالتحقيق والسلوك إلى اليقين والمتابعة في الطريقة { وتتقوا } الحجب النفسانية وموانع السلوك { فلكم أجر عظيم } من كشف الحقيقة { بما أتاهم الله من فضله } من المال والعلم والقدرة والنفس ولا ينفقونه في سبيل الله على المستحقين والمستعدّين والأنبياء والصدّيقين في الذبّ عنهم أو الفناء في الله { سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة } أي: يجعل غلّ أعناقهم وسبب تقييدهم وحرمانهم عن روح الله ورحمته وموجب هوانهم وحجابهم عن نور جماله لمحبتهم له وتعلقهم به { ولله ميراث السموات والأرض } من النفوس وصفاتها كالقوى والقدر والعلوم والأموال وكل ما ينطبق عليه اسم الوجود فما لهم يبخلون بماله عنه.

{ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ }

{ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ }

{ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَاتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }{ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُوا بِٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ }

{ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ }

{ لَتُبْلَوُنَّ فِيۤ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوۤاْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلأُمُورِ }

{ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ }

{ لقد سمع الله } إلى قوله { إن كنتم صادقين } روي أنّ أنبياء بني إسرائيل كانت

معجزتهم أن يأتوا بقربان فيدعوا الله فتأتي نار من السماء تأكله. وتأويله: أن يأتوا بنفوسهم يتقرّبون بها إلى الله ويدعون الله بالزهد والعبادة، فتأتي نار العشق من سماء الروح تأكله وتفنيه في الوحدة، فبعد ذلك صحت نبوّتهم وظهرت فسمع به عوام بني إسرائيل فاعتقدوا ظاهره، وإن كان ممكناً من عالم القدرة فاقترحوا على كل نبي تلك الآية كما توهموا من إقراض الله الذي هو بذل المال في سبيل الله بالإنفاق لاستيفاء الثواب وبذل الأفعال والصفات بالمحو في السلوك لاستبدال صفات الحق وأفعاله وتحصيل مقام الإبدال، فقر الحق وغناهم، أو كابروا الأنبياء في الموضعين بعدما فهموا.

{ لاَ تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوْاْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

{ وَللَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

{ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلاَفِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي ٱلأَلْبَابِ }

{ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ }

{ لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا } أي: يعجبوا بما فعلوا من طاعة وإيثار، وكلّ حسنة من الحسنات، ويحجبون برؤيته { ويحبون أن يحمدوا } أي: يحمدهم الناس، فهم محجوبون بعرض الحمد والثناء من الناس، أو أن يكونوا محمودين في نفس الأمر عند الله { بما لم يفعلوا } بل فعله الله على أيديهم إذ لا فعل إلا لله،

{ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ }

[الصافات، الآية: ٩٦] فائزين من عذاب الحرمان { ولهم عذاب أليم } لمكان استعدادهم واحتجابهم عما فيه، وكان من حقهم أن ينسبوا الفضيلة والفعل الجميل إلى الله ويتبرّأوا عن حولهم وقوّتهم إليه ولا يحتجبوا برؤية الفعل من أنفسهم، ولا يتوقعوا به المدح والثناء { ولله مِلْك السموات والأرض } ليس لأحد فيها شيء حتى يعطي غيره فيعجب بعطائه { والله على كلّ شيء قدير } لا يقدر غيره على فعل مّا، حتى يعجب برؤيته، فيفرح به فرح إعجاب.

{ الذين يذكرون الله } في جميع الأحوال وعلى جميع الهيئات { قياماً } في مقام الروح بالمشاهدة { وقعوداً } في محلّ القلب بالمكاشفة { وعلى جنوبهم }
أي: تقلباتهم في مكان النفس بالمجاهدة { ويتفكرون } بألبابهم أي: عقولهم الخالصة عن شوب الوهم { في خلق } عالم الأرواح والأجساد. يقولون عند الشهود { ربنا ما خلقت هذا } الخلق { باطلاً } أي: شيئاً غيرك، فإنّ غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك { سبحانك } ننزهك أن يوجد غيرك، أي: يقارن شيء فردانيتك أو يثني وحدانيتك { فقنا عذاب } نار الاحتجاب بالأكوان عن أفعالك، وبالأفعال عن صفاتك، وبالصفات عن ذاتك وقاية مطلقة تامة كافية.

{ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ }

{ رَّبَّنَآ إِنَّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلأَبْرَارِ }{ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ }

{ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَـٰرُ ثَوَاباً مِّن عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ }

{ ربنا إنك مَنْ تُدْخِل النار } بالحرمان { فقد أخزيته } بوجود البقية التي كلها ذلّ وعار وشنار { وما للظالمين } الذين أشركوا برؤية الغير مطلقاً أو البقية { من أنصار } { ربنا إننا سمعنا } بأسماع قلوبنا { منادياً } من أسرارنا التي هي شاطئ وادي الروح الأيمن { ينادي } إلى الإيمان العيانيّ { أن آمنوا بربكم }
أي: شاهدوا ربكم، فشاهدنا { ربنا فاغفر لنا } ذنوب صفاتنا بصفاتك
{ وكفر عنّا } سيئات أفعالنا برؤية أفعالك { وتوفنا } عن ذواتنا في صحبة الأبرار من الأبدال الذين تتوفاهم بذاتك عن ذواتهم، لا الأبرار الباقين على حالهم في مقام محو الصفات غير المتوفين بالكلية { ربنا وآتِنا ما وعدتنا على } اتباع { رسلك } أو محمولاً على رسلك من البقاء بعد الفناء، والاستقامة بالوجود

الموهوب بعد التوحيد { ولا تخزنا يوم القيامة } الكبرى ووقت بروز الخلق لله الواحد القهار بالاحتجاب بالوحدة عن الكثرة، وبالجمع عن التفصيل { إنك لا تُخْلِف الميعاد } فتبقى مقاماً وراءنا لم نصل إليه.{ فاستجاب لهم ربّهم أني لا أُضيع عمل عامل منكم من ذَكَر } القلب من الأعمال القلبية كالإخلاص واليقين والكشف { أو أنثى } النفس من الأعمال القالبية، كالطاعات والمجاهدات والرياضات { بعضكم من بعض } يجمعكم أصل واحد وحقيقة واحدة هي الروح الإنسانية، أي: بعضكم منشأ من بعض، فلا أثيب بعضكم وأحرم بعضاً

{ فالذين هاجروا } عن أوطان مألوفات النفس

{ وأخرجوا من } ديار صفاتها أو هاجروا من أحوالهم التي التذّوا بها، وأخرجوا من مقاماتهم التي يسكنون إليها { وأوذوا في سبيلي }

أي: ابتلوا في سبيل سلوك أفعالي بالبلايا والمحن والشدائد والفتن ليتمرّنوا بالصبر، ويفوزوا بالتوكل في سبيل سلوك صفاتي بسطوات تجليّات الجلال والعظمة والكبرياء ليصلوا إلى الرضا { وقاتلوا } البقية بالجهاد فيّ { وقتلوا } وأفنوا فيّ بالكلية { لأكفرنّ عنهم سيئاتهم } كلها من الصغائر والكبائر، أي: سيئات بقاياهم

{ ولأدخلنهم } الجنات الثلاثة المذكورة { ثواباً } أي: عوضاً لما أخذت منهم من الموجودات الثلاثة { والله عنده حُسْن الثواب }

أي: لا يكون عند غيره الثواب المطلق الذي لا يبقى منه شيء، ولهذا قال: والله، لأنه الاسم الجامع لجميع الصفات، فلم يحسن أن يقول: والرحمن، في هذه الموضع أو اسم آخر غير اسم الذات.

{ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلاَدِ }

{ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ }

{ لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ }

{ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ } { يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

{ لا يغرّنك تقلّب الذين كفروا } أي: حجبوا عن التوحيد الذي هو دين الحق في المقامات والأحوال.{ متاع قليل } أي: هو يعني الاحتجاب بالمقامات والتقلّب فيها تمتع قليل { ثم مأواهم جهنم } الحرمان { وبئس المهاد }

{ لكنّ الذين اتّقوا ربّهم } من المؤمنين،

أي: تجرّدوا عن الوجودات الثلاثة، لهم الجنات الثلاث، { نزلاً } معدّاً

{ من عند الله } { وإنّ من أهل الكتاب }

أي: المحجوبين عن التوحيد، والمذكورين بصفة التقلّب في الأحوال والمقامات

{ لمن يؤمن بالله }

أي: يتحقق بالتوحيد الذاتي { وما أُنزل إليكم } من علم التوحيد والاستقامة { وما أُنْزِل إليهم } من علم المبدأ والمعاد { خاشعين لله } قابلين لتجلي الذات.

{ لا يشترون بآيات الله } التي هي تجليات صفاته ثمن البقية الموصوف بالقلّة { أولئك لهم أجرهم عند ربّهم } من الجنان المذكورة { إنّ الله سريع الحساب } يحاسبهم ويجازيهم فيعاقب على بقايا من بقي منهم شيء، أو يثيب بنفي البقايا على حسب درجاتهم في المواطن الثلاثة.

{ يا أيها الذين آمنوا اصبروا } لله { وصَابِروا } مع الله { ورَابِطوا } بالله،

أي: اصبروا في مقام النفس بالمجاهدة، وصابروا في مقام القلب مع سطوات تجليات صفات الجلال بالمكاشفة، ورابطوا في مقام الروح ذواتكم بالمشاهدة حتى لا يغلبكم فترة أو غفلة أو غيبة بالتلوينات { واتقوا الله } في مقام الصبر عن المخالفة والرياء، وفي المصابرة عن الاعتراض والامتلاء وفي المرابطة عن البقية والجفاء لكي تفلحوا الفلاح الحقيقي السرمديّ الذي لا فلاح وراءه، إن شاء الله.